



مغامرات شيرلوك هولمز

تأليف
آرثر كونان دويل

دراسة في اللوْن القِرمِزيّ



بسم الله الرحمن الرحيم

شيرلوك هولمز

دراسَة في اللوْن القِرْمِزيّ

تأليف: آرثر كونان دويل

ترجمة: سالي أحمد حمدي

تحرير: رمزي رامز حسّون



هذه الترجمة تضم النصّ الكامل لرواية شيرلوك هولمز
المنشورة أول مرة عام ١٨٨٧ بعنوان

A Study in Scarlet

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الثانية
٢٠٢٠



آرثر كونان دويل

وُلد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في سكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً. وكان من مدرّسيه في الكلية الجرّاحُ الشهير الدكتور جوزيف بِلْ، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢ حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جرّاحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطَرَّته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتْسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه

إلى الكتابة أملاً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلّات الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص، وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري. وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة في اللون القِرْمِزي» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجَّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

واحدة من تلك الحوادث كانت عن رجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث بدَّل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلَّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى

سكتلندا تغادر محطة كِنْغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.



عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور آرثر كونان دويل في حرب البُوِير (التي دارت في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولَقَبها «سيرْ» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

توفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.





شيرلوك هولمز وعالَمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهرَ الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرةَ مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بِلْ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بِلْ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومِهَنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرِّح من الجيش حديثاً، وقد عدتَ لتوّك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل".

وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من

هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوّحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالَمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحدّدها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨، وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (شارع بيكر، ٢٢١ب) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته



وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطّلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاوِيةُ القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو، المحقق الشهير الذي ابتكرته أغاثا كريستي). وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وحصل على شهادته الجامعية في الطب سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش وشارك في الحملة الأفغانية، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية عام ١٨٩٣ «قَتل» دويل بطلَه شيرلوك هولمز، لكنه واجهَ احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.



قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جِفْسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة في اللون القِرْمِزي»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يَكَد يُحِسّ بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، هي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطّدت شخصيةَ هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

في السنة التالية بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو) ١٨٩١، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخَ من بابه الواسع، حيث صارت حديثَ المجتمع وشُغلَ الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتَي عشرة، نُشر

آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «مذكرات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتَي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرّير عند شلالات رايشِنْباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة، وعنوانها «المشكلة الأخيرة»، في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسّك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يَحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على إعادة إحياء شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الفارغ» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد، فقد تبيّن أنه لم يُقتَل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الفارغ) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شقّ طريقه بعد ذلك إلى بلاد التبت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كولْيِرْز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشّاقه المخلصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة

«عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة روايةَ شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

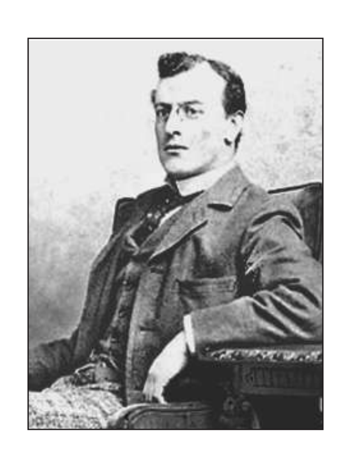
وبعدها صدرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز: الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣. ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (١٩١٤/٩-١٩١٥/٥) التي حازت على إعجاب النقّاد في كل الأوقات. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٩٢١/١٠-١٩٢٧/٤) التي نُشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألّف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومَنْسيّة ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب غير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من مؤلفات نحو مئة وستين، منها ستّون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالِم اسمه البروفِسور تشالنجر

(أشهرها رواية «العالَم المفقود») ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيّباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».

* * *



رسّام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عددٌ من الرسّامين، لكن أشهرهم وأعظمهم -بلا خلاف- كان الرسام الإنكليزي سدني باجيت الذي صاحَبَ قصص هولمز منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بَلْوَر صورة شيرلوك هولمز وطبَعَها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسعَ ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصّتَي «جزيرة الكنز» و«روبنسون كروزو»، لكن خطأً في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الستّ الأولى التي نشرتها مجلة «ستراند» في النصف الثاني من عام ١٨٩١، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيَته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في

عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زيّنت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة «ستراند» برسّامين آخرين، فشارك في رسم السلسة الجديدة «ذكريات شيرلوك هولمز: الظهور الأخير» كل من وُلْتَر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وتشارلز هَليدي وأَلِكْ بول وجوزف سمبسون وهنري بروك. أما السلسلة الأخيرة (قضايا شيرلوك هولمز) فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم هَوارد إلْكوك وفرانك وايْلز وألفرِدْ جِلبرْت.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة «ستراند». أما في أمريكا فقد استعانت مجلة «كوليِرْز» بعدد من الرسامين أشهرهم فردرِك دورْ ستيل، ومنهم جوزف فريدرتش ورِتشارد غوتشمت ووليَم هايْد.



دراسَة في اللوْن القِرْمِزيّ

نُشرت للمرة الأولى في مجلة «بيتون» السنوية
في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٨٧

توضيح من الناشر

القِرْمِزُ -كما جاء في معاجم اللغة العربية- صِبغٌ أحمرُ بلون العدس تُصبَغ به الأقمشة، واللفظة فارسية معرَّبة. وقد اتفق أصحاب المعاجم الإنكليزية العربية التي صدرت في القرن الماضي على استعمال الصفة المشتقة من هذا الاسم ترجمةً لكلمة «scarlet» التي تدل على الحُمْرة القانِية بلون الدم.

وقد ترددنا أمام عنوان هذه الرواية، هل نترجمه حرفياً: «دراسة في اللون القِرْمِزيّ»، أو بصيغة مختصرة: «دراسة قِرمِزيّة»، أو بكلمات أكثر تعبيراً: «دراسة بلون الدم»؟ ثم استقر الرأي على العنوان الحالي لأنه الأكثر دقة، وحرصنا على تقديم هذا التوضيح لأن اللفظة غير شائعة وقد لا يُفهَم معناها بَداهةً. أما تفسير هذا العنوان الغريب والمعنى الذي قصده المؤلف منه فيجده القارئ في الصفحة رقم ٩٣ من هذه الرواية.

تقديم
بقلم محرّر الطبعة العربية

شهدت هذه الرواية «ولادة» شيرلوك هولمز في عالم الأدب وفيها ظهر للمرة الأولى مع صديقه الدكتور واطسون، وقد كتبها مؤلفها آرثر كونان دويل وهو في السابعة والعشرين من عمره واستغرق في كتابتها ثلاثة أسابيع، وبعد أن رفضها عدّةُ ناشرين (كما يحصل عادة) نُشرت أخيراً في نهاية سنة ١٨٨٧ في حَوليّة «بيتون» التي تصدر سنوياً في عيد الميلاد*، وكان العنوان الأصلي الذي اقترحه المؤلف هو «خيطان متشابكة» ** إلا أن الناشر اختار العنوان الجديد الذي صدرت به الرواية.

وقد تقاضى دويل خمسة وعشرين جنيهاً إسترلينياً مقابل حقوق النشر القطعية في المجلة التي بقيت منها اليوم إحدى عشرة نسخة أصلية كاملة فقط، وقد بيعت نسخةٌ منها في قاعة مزادات سَذِبيز عام ٢٠٠٧ بمئة وستة وخمسين ألف دولار أمريكي.

---

* Beeton's Christmas Annual

** A Tangled Skein

صدرت النسخة الأولى من الرواية في حَوليّة «بيتون» مع أربع رسمات بريشة ديفيد هنري فرِسْتون، ثم صدرت في السنة التالية (١٨٨٨) في مجلد مستقل مع ستّ رسمات رسمها والد المؤلف، ثم صدرت سنة ١٨٩١ طبعة أنيقة في بريطانيا والولايات المتحدة معاً وفيها اثنتان وأربعون لوحة من رسم جورج هَتْشِنْسون. ولم تتوقف إعادة طبعها منذ ذلك الحين.



الجزء الأول

نسخة من مذكرات جون واطسون

الطبيب السابق في الجيش البريطاني

الفصل الأول
السيد شيرلوك هولمز

أنهيت دراستي في كلية الطب بجامعة لندن وتخرجت فيها طبيباً عام ١٨٧٨، ثم ذهبت إلى نيتلي (في مقاطعة هامبْشَيَرْ) للمشاركة في الدورة المُقررة على أطبّاء الجيش. وبعد أن أكملت دراستي هناك أُلحقت بفرقة المشاة الخامسة كطبيب مساعد، وكانت تعمل في الهند في ذلك الوقت، وقبل أن أصل إليها اندلعت الحرب الأفغانية الثانية.

عندما وصلت إلى بومباي عرفت أن فرقتي توغلت في عمق أراضي أفغانستان، فتبعتها مع عدد من الضباط الآخرين الذين كانوا في مثل حالتي، ونجحنا أخيراً بالوصول إلى قندهار بسلام. هناك وجدت كتيبتي، وانخرطت بعملي الجديد في الحال.

كانت تلك الحرب سبباً في حصول الكثيرين على ترقيات وأوسمة، أما أنا فلم تحمل لي سوى البلاء وسوء الحظ، فقد نُقلت من كتيبتي وأُلحقت بكتيبة بيركْشايَر التي شاركتُ معها في معركة مايْواند المشؤومة، حيث أُصبت في كتفي بطلقة

نارية هشّمَت العظم وجرحت شريانَ تحتِ التَّرْقُوَة، ولولا شجاعة وإخلاص مساعدي موراي (الذي حملني على ظهر أحد أحصنة حَمْل العتاد ونجح في إعادتي سالماً إلى الخطوط البريطانية) لصرت في عداد القتلى أو الأسرى.

نُقلت بعد ذلك مع قافلة كبيرة من الجرحى إلى المستشفى



رسم رتشارد غوتْشمِت (١٩٠٢) Richard Gutschmidt (1902)

الرئيسي في بيشاور، وقد أنهكني الألم وأضعفتني الأحوال الصعبة التي عانيت منها لوقت طويل. هناك استرجعت عافيتي حتى صرت قادراً على المشي في أنحاء المستشفى والجلوس قليلاً تحت أشعة الشمس في الشرفة، إلا أنني ما لبثت أن أُصبت بالحمى التيفودية، تلك اللعنة التي أصابتنا نتيجة احتلالنا للأراضي الهندية، وبقيت في حالة شبه ميؤوس منها لعدة أشهر.

عندما بدأت أتعافى أخيراً ودخلت في طور النقاهة كنت قد بلغت درجة من الضعف والهُزال بحيث قررت لجنة طبية إعادتي إلى إنكلترا على الفور. وهكذا رجعت إلى البلاد في سفينة نقل الجنود «أورنتُس»، فوصلت بعد شهر إلى ميناء بورتسماوْث بصحة منهارة تماماً، حيث سمحت لي السلطات الرحيمة بقضاء الأشهر التسعة التالية في محاولة استرداد صحتي.

* * *

لم يكن لي في إنكلترا أي أقارب فكنت حراً كالنسيم، وتمتعت بالحرية التي يوفرها دخلٌ يبلغ أحدَ عشر شلناً وستة بنسات في اليوم. في تلك الظروف كان طبيعياً أن أنجذب إلى لندن، ذلك المغنَطيس الهائل الذي يستقطب العاطلين والمتسكعين، فأقمت لبعض الوقت في أحد الفنادق بشارع ستراند وعشت حياة باهتة بلا هدف، وكنت أنفق ما أحصل عليه من المال بتبذير مفرط حتى صرت على حافة الإفلاس، فأدركت أنني أمام خيارين: إما أن أترك العاصمة وأعيش في

الريف، أو أغيّر أسلوب حياتي كلياً. وباختيار البديل الثاني كان لزاماً عليّ أن أبدأ بترك النزُل واستئجار مسكن آخر في مكان أرخص وأقل فخامة.

في اليوم الذي اتخذت فيه ذلك القرار كنت في مقهى كرايتِرِيون عندما ربَّت شخص على كتفي، وحين التفَتُّ رأيت ستامفورد، الشاب الذي عمل مساعدَ طبيب تحت رئاستي. كان من حسن الحظ أن يرى رجلٌ وحيدٌ وجهَ صديق قديم في وَحشة لندن الهائلة. ولم يكن ستامفورد من أصدقائي المميزين في الماضي، أما في ذلك الوقت فقد رحّبت به بحماسة، وهو نفسه بدا عليه السرور لرؤيتي. وفي غمرة فرحي به طلبت منه أن يتناول معي الغداء في مطعم هولبورن، فانطلقنا إلى هناك في عربة ذات عجلتين.

سألني بتعجّب واضح والعربة تسير مصدرة أصواتاً عالية عبر شوارع لندن المزدحمة، قال: ما الذي حدث لك يا واطسون؟ إنك نحيل كعود خشبي وبشرتك داكنة كحبّة لوز!

سردت عليه وصفاً مختصراً لمغامراتي، وما كدت أنتهي من ذلك حتى كنا قد وصلنا إلى وجهتنا، فقال بشفقة بعد أن سمع بمحنتي: يا لك من مسكين! وما الذي تنوي فعله الآن؟

أجبته قائلاً: سأبحث عن مسكن؛ سأحاول حل المعضلة التي تواجهني بالحصول على مسكن مريح بسعر معقول.

علق رفيقي قائلاً: عجباً! أنت الرجل الثاني الذي أسمع منه هذه العبارة اليوم.

سألته قائلاً: ومَن كان الأول؟

- إنه زميل يعمل في المختبر الكيميائي في المستشفى، وكان يشكو هذا الصباح لأنه لم يستطع العثور على شخص مناسب يشاركه مناصَفةً دفع إيجار مسكن لطيف عثر عليه ولا يستطيع تحمّل كلفته وحده.

هتفت قائلاً: يا إلهي! لو أنه أراد حقاً مَن يشاركه المسكن والكلفة فأنا الشخص المناسب لذلك، كما أنني أفضّل أن أحظى بشريك على أن أسكن وحدي.

نظر الشاب ستامفورد إليّ بغرابة وقال: أنت لا تعرف شيرلوك هولمز بعدُ، وقد لا ترغب في أن يصبح رفيقاً دائماً لك.

- لماذا؟ ما الذي يعيبه؟

- لم أقُل إن فيه ما يعيب. صحيحٌ أن أفكاره غريبة إلى حدٍ ما، كما أنه دارس متحمس لبعض فروع العلوم، إلا أنه رجل محترم كما أعلم.

قلت: هل أفترضُ أنه طالب طب إذن؟

- لا أعرف المجال الذي ينوي التخصص فيه. أظن أن مستواه متقدم في التشريح، وهو كيميائي من الدرجة الأولى، ولكنه -حسب علمي- لم يلتحق بأي صف من صفوف دراسة الطب النظامية، وأبحاثه غريبة ولا تنتمي إلى منهج محدد، وقد جمع معارف متنوعة غير مألوفة يثير بها دهشة أساتذته.

- ألم تسأله عن التخصص الذي يسعى وراءه؟

- لم أفعل، فهو ليس بالشخص الذي تستطيع التحدث معه بحرّية، مع أن باستطاعته أن يُسهب في الحديث حين تتملكه الرغبة في ذلك.

قلت: أودّ أن أقابله. إذا كنتُ سأسكنُ مع شخص ما فإنني أفضّله هادئ الطباع محباً للدراسة، فأنا لم أتعافَ بشكل كامل بعدُ ولا أحتمل الكثير من الإثارة والضوضاء، فقد نلت منهما في أفغانستان ما يكفيني لبقية حياتي. كيف أستطيع أن أقابل صديقك هذا؟

رَدَّ رفيقي قائلاً: غالباً سنجده في المختبر، فهو إما أن يتجنب الذهاب إليه لأيام متتالية أو يعمل فيه من الصباح إلى المساء بلا انقطاع. يمكننا أن نذهب هناك بعد الفراغ من تناول الغداء لو أردت.

أجبته قائلاً: بالتأكيد.

ثم تشعّب بنا الحديث في موضوعات أخرى. وحينما انطلقنا في طريقنا إلى المستشفى زودني ستامفورد ببعض التفصيلات الجديدة عن السيد الذي عزمت مُشاركته السكن؛ قال: لا تَلُمْني إذا لم تتفق معه، فأنا لا أعرف عنه إلا ما تتاح لي معرفته أثناء مقابلته في المختبر بين حين وآخر، وبما أنك مَن اقترح هذا الترتيب فلا يمكنك أن تحمّلني المسؤولية.

فأجبته قائلاً: إذا لم نتفق فنستطيع أن نفترق بسهولة.

ثم استطردت وأنا أنظر إلى صديقي بإمعان قائلاً: يبدو لي أن لديك من الأسباب ما يدفعك إلى نفض يديك من الموضوع يا ستامفورد. هل لهذا الرجل طباع سيئة أم ماذا؟ هيّا، لا تكن كتوماً!

أجاب ضاحكاً: ليس سهلاً أن أخبرك بما لا يمكن التعبير عنه، فأنا لا أرتاح لطبيعة هولمز التي تسعى إلى العلم بشكل مبالَغ فيه، بشكل يقترب من الشذوذ... حتى لأكاد لا أستبعد أن يقدّم لأحد أصدقائه آخر ما اكتُشف من المركّبات القلوية التي تُستخرَج من النباتات وتُستعمَل في الأدوية والسموم! ليس عن سوء نية بالتأكيد، ولكن -ببساطة- من منطلق البحث العلمي، لكي يكوّن فكرة دقيقة عن تأثير تلك المواد! وإحقاقاً للحق فأنا أعتقد أنه هو نفسه قد يتناول تلك المادة بسهولة، حيث يبدو أن لديه رغبة جارفة في الوصول إلى المعلومات العلمية الوثيقة.

- ولديه كل الحق في ذلك.

- أجل، ولكنه قد يندفع بشكل مبالَغ فيه، فعندما يصل الأمر لدرجة ضرب الجثث في غرفة التشريح بعصا يكون هذا الأمر مُستهجَناً بالتأكيد.

- ضرب الجثث؟

- نعم، لكي يعرف إلى أي درجة يمكن للكدمات أن تظهر بعد الموت. لقد رأيته بنفسي وهو يصنع ذلك.

- ثم تقول إنه ليس طالب طب؟!

قال صديقي فيما كنا ننعطف لنسير في ممر ضيق: لا أعلم، الله وحده يعلم ما هو الهدف من أبحاثه! ها قد وصلنا، وعليك أن تكوّن رأيك الخاص عنه.

* * *

دخلنا من باب جانبي يفتح على أحد أجنحة ذلك المستشفى العظيم. كان المكان مألوفاً لي فلم أحتَجْ لمَن يرشدني حين صعدنا الدرَج الحجري الكئيب، وبعد ذلك مشينا في الممر الطويل بجدرانه البيضاء وأبوابه البنّية، ثم انعطفنا بالقرب من نهايته إلى ممرّ له مدخل مقوَّس يقود إلى المختبر الكيميائي.

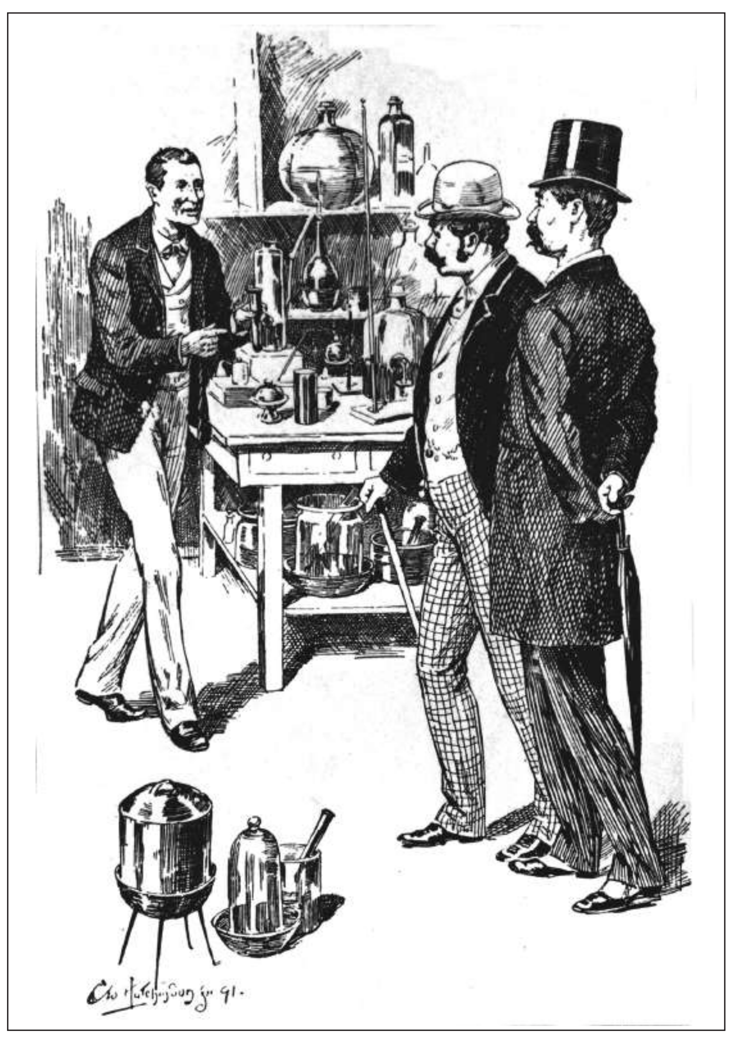
كان المختبر غرفة ضخمة يصطفّ فيها عددٌ لا حصرَ له من الزجاجات بلا ترتيب، وتنتشر فيها طاولات عريضة عليها قوارير للتقطير وأنابيب للاختبار ومصابيح صغيرة تتوهّج بشعلتها الزرقاء. كان في الغرفة شخص واحد، وكان منحنياً على طاولة بعيدة ومستغرقاً في عمله، فلما سمع صوت خطوات أقدامنا نظر حوله، ثم هَبَّ على قدميه مُطلقاً صيحةً فرِحة.

قال محدّثاً رفيقي وهو يهرع باتجاهنا ممسكاً بأنبوب اختبار قائلاً: لقد وجدت المادة التي تترسب فقط عند وجود الهيموغلوبين.

لو أنه اكتشف منجماً للذهب لما أشرق وجهه بسعادة أكبر من تلك التي ظهرت على ملامحه! وقال ستامفورد مقدِّماً كلاً منا إلى الآخر: الدكتور واطسون، السيد شيرلوك هولمز.

قال هولمز بِوُدّ وهو يشدّ على يدي بقوة لم أتوقع أنه يملكها: كيف حالك؟ أرى أنك كنت في أفغانستان؟

سألته بدهشة قائلاً: كيف عرفت ذلك بالله عليك؟



رسم جورج هَتْشِنْسون (١٨٩١) George Hutchinson (1891)

ضحك قائلاً: لا تهتم، فالموضوع يتعلق بالهيموغلوبين. لا شك أنك تعرف أهمية اكتشافي؟

أجبت قائلاً: إنه اكتشاف مهم من الناحية الكيميائية، ولكن من الناحية العملية...

- عجباً! إنه أكثر اكتشافات الطب الجنائي أهميةً من الناحية العملية في السنوات الأخيرة. ألا ترى أنه يمكّننا من الحصول على نتيجة مؤكدة عند فحص بقع الدم؟ تعالَ لأريك شيئاً.

في فورة حماسته أمسك هولمز بكُمّ معطفي وجذبني لأقترب من الطاولة التي كان يعمل عليها قائلاً: دعنا نحصل على بعض الدم الطازج.

غرز الإبرة في إصبعه وسحب الدم الناتج عن الجرح بأنبوب ماصّ، ثم استطرد قائلاً: الآن سأضيف هذا المقدار الضئيل من الدم إلى لتر من الماء، وستلاحظ أن الخليط الناتج له مظهر الماء النقي. ومع أن نسبة الدم لا تتجاوز واحداً بالمليون إلا أنني واثق أننا سننجح في الحصول على تفاعل يميز وجود الدم.

فيما كان يتحدث ألقى بعض البلّورات البيضاء في الإناء، ثم أضاف قطرات قليلة من سائل شفاف، وفي لحظة واحدة تحول المحتوى إلى اللون البُنّي الباهت وترسّبَت مادة بنّية في قاع الإناء الزجاجي، فصاح هولمز وهو يصفق بيديه ويبدو فَرِحاً كطفل حصل على لعبة جديدة قائلاً: ها، ما رأيك بهذا؟

علقت قائلاً: يبدو أنه اختبار دقيق جداً.

- ممتاز، ممتاز! إن الاختبار القديم الذي تُستخدَم فيه مادة صمغية غير مناسب وغير مؤكد، وكذلك الفحص المجهري لكُرَيّات الدم، فهو يصبح عديم القيمة بعد مرور ساعات قليلة على البقع، أما هذا الاختبار فإنه يعمل بالجودة نفسها، سواء أكانت بقعة الدم حديثة أم قديمة. ولو أن هذا الاختبار اكتُشِفَ من قبل لدفع مئات الرجال الذين يجوبون الأرض الآن أحراراً ثمن ما ارتكبوه من جرائم.

غمغمت قائلاً: أجل.

- إن القضايا الجنائية تتوقف دائماً عند هذه النقطة بالذات، فقد يُشتبَه في ارتكاب شخص ما لإحدى الجرائم بعد ارتكابها بأشهر، فتُكتشَف -مثلاً- بُقَعٌ بنّية على مفارش سريره أو ملابسه بعد فحصها، فهل تكون تلك البقع بقعَ دم أو وحلاً أو صدأ، أم أنها بقع فاكهة مثلاً؟ ما هي طبيعتها؟ هذا السؤال حيّرَ الكثير من الخبراء، والسبب هو عدم وجود اختبار يمكن الاعتماد عليه، أما الآن فلدينا اختبار شيرلوك هولمز؛ لا صعوبةَ بعد اليوم.

لمعت عيناه بقوّة وهو يتكلم، ثم وضع يده على صدره وانحنى كما لو أنه يتخيل جمهوراً يصفق له استحساناً.

قلت وقد استغربت من حماسته كثيراً: علينا أن نهنّئك.

قال: في العام الماضي كانت قضية فون بيسْكوف في

فرانكفورت، والذي كان سيُعدَم بالتأكيد لو أن هذا الاختبار كان موجوداً. وأيضاً قضية ميسون من برادفورد، ومولر السيّئ السمعة، وليفيفر من مونتبلييه، بالإضافة إلى سامسون من نيو أورليَنْز... أستطيع أن أذكر الكثير من القضايا التي كان من شأن هذا الاختبار أن يكون حاسماً في حلها.

قال ستامفورد ضاحكاً: تبدو وكأنك سجل متحرك لأخبار الجريمة! يمكنك إنشاء جريدة متخصصة في هذا الأمر، ولتطلق عليها اسم «أخبار الشرطة».

قال شيرلوك هولمز: ويمكن أن نجعل قراءتها ممتعة أيضاً. ثم وضع ضمادة لاصقة صغيرة على الجرح الصغير في إصبعه، والتفت نحوي وهو يقول مبتسماً: يجب أن أكون حذراً، فكثيراً ما تبتلّ يدي بالسموم. ثم رفع يده فيما كان يتكلم، فلاحظت أنها تمتلئ بقطع مماثلة من اللاصق، وكان لونها متغيراً نتيجة التعرض للأحماض القوية.

قال ستامفورد وهو يجلس على مقعد مرتفع ويدفع بقدمه كرسياً آخر ناحيتي: لقد جئنا في عمل، فصديقي يبحث عن مكان مناسب للسكن، وبما أنك كنت تشكو من عدم العثور على مَن يشاركك السكن فقد فكرت في جمعكما معاً.

بدا شيرلوك هولمز سعيداً بفكرة مشاركة سكنه معي وقال: لقد أعجبتني شقة في شارع بيكر، وسوف تناسبنا تماماً. هل تزعجك رائحة تدخين الغليون القوية؟

أجبته قائلاً: لا، فأنا نفسي أدخنه أحياناً.

- هذا جيد. ثم إنني كثيراً ما أكون محاطاً بمواد كيميائية وأنشغل أحياناً بإجراء بعض التجارب. هل يضايقك هذا؟

- أبداً، على الإطلاق.

- دعني أفكر: ما هي عيوبي الأخرى؟ نعم، ينتابني الاكتئاب في بعض الأحيان فلا أتفوّه بكلمة لأيام متصلة. عليك أن لا تظن أنني غاضب عندما أصنع ذلك، بل دعني وحدي وسوف تتحسن حالتي سريعاً. والآن ماذا لديك لتعترف به؟ من الجيد لأي شخصين أن يعرف كل منهما عيوبَ الآخر قبل أن يبدآ بالعيش معاً.

ضحكت بسبب استجوابه وقلت: أنا لا أحتمل الضجيج لأن أعصابي ضعيفة، كما أن ساعات استيقاظي غير منتظمة، وأعاني من الكسل الشديد، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من العيوب التي ستظهر حين أُشفى، ولكن هذه هي العيوب الأساسية في الوقت الحاضر.

سألني باهتمام قائلاً: وهل يدخل عزف الكمان ضمن ما تعتبره ضجيجاً؟

أجبت قائلاً: الجواب يعتمد على العازف، فسماع العزف الجيد على الكمان متعة، أما العزف السيّئ...

صاح ضاحكاً بمرح: آه! حسناً. أعتقد أن بوسعنا أن نعتبر الأمر منتهياً، هذا لو أعجبك المسكن.

- متى سنراه؟

أجاب قائلاً: قابِلْني هنا ظهر الغد لنذهب معاً.

صافحته قائلاً: حسناً، سأحضر عند الظهر تماماً.

تركناه يعمل بين مواده الكيميائية ومشينا معاً باتجاه نزُلي، ثم توقفت فجأة والتفتّ إلى ستامفورد سائلاً: بالمناسبة، كيف عرف هذا الرجل أنني عائد من أفغانستان بالله عليك؟

ابتسم رفيقي ابتسامة محيّرة وقال: إن هذا الأمر من صفاته المميزة، وكثيرون يتمنَّون فعلاً معرفة الطريقة التي يكتشف بها هذه الأشياء.

صحت وأنا أفرك يدي: آه، إنه لغز إذن؟ هذا أمر مثير، وأنا مُمْتَنّ لك لأنك عرَّفتني به، فالدراسة الصحيحة للجنس البشري هي دراسة الإنسان كما تعرف.

قال ستامفورد وهو يودعني: فلتدرسه إذن، ولكني أعتقد أنك ستجد دراستَه مسألةً معقدة، بل إنني مستعد لمراهنتك على أنه يعرف عنك أكثر مما تعرف عنه. وداعاً.

قلت: وداعاً.

ثم مشيت بهدوء متجهاً إلى نزُلي، وقد أثار الشخص الذي تعرفت إليه للتوّ اهتمامي الشديد.

* * *

الفصل الثاني
علم الاستنتاج

تقابلنا في اليوم التالي حسب الترتيب السابق، وفحصنا المسكن الذي تحدث عنه هولمز في لقائنا السابق، وهو شقة في العمارة رقم «٢٢١ب» في شارع بيكر.

كانت في الشقة غرفتان مريحتان للنوم وغرفة جلوس واسعة جيّدة التهوية فُرشت بأثاث مبهج وتدخلها الإضاءة من نافذتين كبيرتين. كان المسكن مُرْضياً من كل النواحي، كما بدت نفقاته هيّنة جداً عند تقسيمها فيما بيننا، حتى إننا أتممنا الاتفاق ودخلنا إلى الشقة في الحال.

في الليلة نفسها نقلت أمتعتي من النزُل، ثم لحقني شيرلوك هولمز صباح اليوم التالي، وقد أحضر معه عدة صناديق وحقائب سفر. انشغلنا لمدة يومين في فَكّ أمتعتنا وترتيب شقتنا للاستفادة من كل مزاياها، وحين انتهينا من ذلك بدأنا بالاستقرار المتدرج وبالتكيّف مع المكان الجديد.

لم تكن الحياة مع هولمز صعبة بالتأكيد، فقد كان هادئ

الطباع منتظماً في عاداته، حيث كان من النادر أن يسهر بعد العاشرة مساء، وكان يتناول طعام الإفطار ويخرج قبل أن أستيقظ من نومي في الصباح في أكثر الأيام، وكان يقضي يومَه أحياناً في المعمل الكيميائي، وأحياناً أخرى في رَدهة الاستقبال في الطابق الأسفل، وبين حين وآخر كان يخرج في نزهات طويلة على الأقدام يذهب فيها -على ما يبدو- إلى المناطق الفقيرة في المدينة.

لم يكن لنشاطه مثيل عندما تتملكه نوبة من نوبات العمل، ولكنه كان ينتكس في بعض الأوقات فيقضي أياماً متتالية وهو راقد على الأريكة في غرفة الجلوس بلا حراك، يكاد لا ينطق بكلمة من الصباح إلى المساء. وقد لاحظت في تلك الفترات نظراته الحالمة الشاردة، وكان من الممكن أن أشك في تعاطيه بعض العقاقير المهدّئة لولا أن التزامه بالعادات المنتظمة والصحية في حياته كلها منعني من التفكير بهذا الأمر.

مع مرور الأسابيع تعمق اهتمامي به بالتدريج، وزاد فضولي لمعرفة أهدافه في الحياة. لقد كان شكله الخارجي ومظهره وحدَهما كفيلَين بجذب انتباه أي مشاهد عابر، فطوله يزيد قليلاً على مئة وثمانين سنتمتراً، ولكنه كان نحيلاً جداً مما جعله يبدو أطولَ بكثير. وكانت لعينيه نظرة حادة ثاقبة، باستثناء فترات البَلادة التي أشرت إليها قبل قليل، أما أنفه الطويل المعقوف فإنه يوحي باليقظة والحسم، ويوحي ذقنه البارز بالعزيمة القوية. وقد كانت يداه ملوثتين بالحبر دائماً

ومبقعتين بالمواد الكيميائية، إلا أنه كان يمتلك لمسة رقيقة بشكل غير عادي، وقد لاحظت ذلك مراراً عندما سنحت لي الفرصة لمشاهدته وهو يتعامل مع آلاته العلمية الحساسة.

قد يظن القارئ أن الفضول من طبعي حين أقرّ بمدى إثارة هذا الرجل لفضولي وحين أذكر عدد المرات التي سعيت فيها لاختراق حالة التكتم التي فرضها على كل ما يخصه، ولكن قبل أن تصدروا حكمكم عليّ أرجو أن تتذكروا أن حياتي كانت بلا هدف، وأن الأشياء التي كانت تجذب اهتمامي كانت قليلة جداً، فقد منعتني حالتي الصحية من المغامرة بالخروج ما لم يكن الجو معتدلاً تماماً، ولم يكن لي أصدقاء يزورونني لكسر رتابة حياتي اليومية، وبسبب تلك الظروف رحبتُ بشغَف بالغموض الذي كان يحيط برفيقي في المسكن، وقضيت الكثير من وقتي محاولاً اكتشافه.

لم يكن هولمز يدرس الطب، وقد أكّد هو نفسه -في إجابته على أحد الأسئلة- رأي ستامفورد بخصوص هذا الأمر، ولم يَبدُ أيضاً أنه يتابع أياً من الدورات الدراسية التي قد تؤهله لنيل درجة علمية في العلوم أو أي دراسة منهجية أخرى تتيح له دخول المجتمع العلمي الأكاديمي. إلا أن حماسته للقراءة كانت متميزة، وكانت ثقافته العامة واسعة ودقيقة بشكل استثنائي، لدرجة أن ملاحظاته أذهلتني. ومن المؤكد أن أي شخص لن يبذل هذا الجهد في تحصيل ذلك القدر الكبير من المعلومات الدقيقة ما لم يكن لديه هدف يسعى لتحقيقه في النهاية، فالقرّاء الذين ينتقلون من موضوع لآخر دون هدف

محدد نادراً ما يتميزون بدقة معلوماتهم، لأن الإنسان لا يرهق عقله بدراسة الأمور الدقيقة دون سبب وجيه.

وكان جهله في بعض المجالات يثير الدهشة كعلمه في غيرها، فقد بدا أن ما يعرفه عن الأدب المعاصر والفلسفة والسياسة يكاد يكون معدوماً، فحين استشهدت ببعض أقوال توماس كارلايل سألني بسذاجة عنه وعن أعماله! وقد وصلت دهشتي إلى الذروة حين اكتشفت -مصادَفةً- أنه يجهل كل شيء عن النظام الشمسي وأنه لم يسمع بنظرية كوبرنيكوس، فقد بدا لي أمراً في غاية الغرابة أن يعيش إنسانٌ متحضر في أواخر القرن التاسع عشر ولا يعرف أن الأرض تدور حول الشمس!

ابتسم هولمز بسبب تعبير الذهول الذي ظهر على وجهي وقال: تبدو عليك الدهشة؟ أمَا وقد عرفتُ هذه المعلومة الآن فسيكون عليّ أن أبذل جهدي لأنساها.

- لتنساها؟!

شرح قائلاً: أنا أعتبر أن عقل الإنسان يشبه مخزناً صغيراً فارغاً تخزن فيه ما تختاره من متاع، والأحمق هو من يحشوه بكل ما يعثر عليه من سقط المتاع، فيمنع المعلومات التي قد تنفعه من العثور على مكان وسط الزحام! أو يختزنها -في أفضل الأحوال- بغير ترتيب مع الكثير من الأشياء الأخرى، وهكذا يواجه صعوبة في الوصول إليها. أما الشخص الحاذق فهو الذي يحرص على اختيار ما يضعه في مخزن عقله، بحيث

لا يُدخل إليه شيئاً سوى ما يمكن أن يساعده في أداء عمله، وهو يجمع منها مجموعة منوعة كبيرة ويضعها كلها في ترتيب متقَن. من الخطأ أن نظن أن تلك الغرفة الصغيرة تتمتع بجدران مطّاطة تتسع إلى ما لا نهاية، ومن ظن ذلك سيأتي الوقت الذي ينسى فيه شيئاً يعرفه مقابل كل معلومة جديدة يضيفها. وإذن فمن المهم جداً ألّا تدفع المعلومات عديمة الفائدة بالمعلومات المفيدة إلى الخارج.

اعترضت قائلاً: ولكن النظام الشمسي!

قاطعني بنفاد صبر: ما قيمة هذا الأمر بالنسبة لي؟ أنت تقول إننا ندور حول الشمس، ولو كنا ندور حول القمر لما كان لذلك أي تأثير عليّ أو على عملي.

كنت على وشك أن أسأله عن طبيعة ذلك العمل، ولكني شعرت -من لهجته وأسلوبه- أنه لن يُرحّب بهذا السؤال. بدلاً من سؤاله رحت أفكر في محادثتنا القصيرة محاولاً أن أستخلص منها بعض الاستنتاجات، فقد قال إنه لن يسعى لاكتساب معلومات ليست لها علاقة بهدفه، فلا بد أن كل المعلومات التي تعلَّمَها مفيدة له.

أخذت أعدد في عقلي كل الموضوعات المختلفة التي ظهر لي أنه ضليع فيها بشكل استثنائي، حتى إنني أخذت قلماً وكتبتها بإيجاز، ولم أتمالك نفسي من الابتسام حين نظرت إلى الورقة بعد أن أكملتها. كان فيها ما يلي:

مواهب وقدرات شيرلوك هولمز

١- معرفته بالأدب: معدومة.

٢- الفلسفة: معدومة.

٣- علم الفلك: معدومة.

٤- السياسة: ضعيفة.

٥- علم النبات: متنوعة (مطّلع على السموم بشكل جيد، لكنه لا يعرف شيئاً عن الزراعة العملية).

٦- معرفته بالجيولوجيا: عمَلية ولكنها محدودة، فهو يستطيع بنظرة واحدة التمييز بين أنواع التربة (بعد نزهته على الأقدام عرض عليّ آثار بقع على بنطاله وأخبرني بالمكان الذي تناثرَت عليه فيه مستنداً إلى لون التربة وكثافتها).

٧- معرفته بالكيمياء: عميقة.

٨- معرفته بالتشريح: دقيقة، لكنها غير منهجية.

٩- معرفته بتاريخ الجريمة: هائلة (كأنه يعرف تفاصيل كل جريمة كبيرة ارتُكبت في هذا القرن)!

١٠- القانون: معرفته بالقانون البريطاني جيدة.

١١- يعزف على الكمان بشكل جيد.

١٢- الرياضة: لاعب خبير في القتال بالعصا، وملاكم محترف، ويجيد استخدام السيف.

عندما بلغت هذا البند في قائمتي رميت بها في النار بيأس وقلت لنفسي: لو أنني أستطيع فقط اكتشاف ما يرمي إليه هذا الرجل عن طريق التوفيق بين كل هذه المهارات والعثور على مهنة تحتاج إليها كلها! ولكن يبدو أنني لن أنجح في ذلك مهما حاولت.

أذكر أنني أشرت سابقاً إلى مهارته في عزف الكمان، وهي مهارة متميزة جداً، وإن كانت بنفس غرابة كل مهاراته الأخرى. كنت على يقين أن باستطاعته عزف مقطوعات موسيقية صعبة، لأنه عزف -بناء على طلبي- بعضاً من أعمال ميندلسون ليدر ومعزوفات قديمة أخرى، ولكن عندما يكون وحيداً فإنه لا يحاول عزف أي نغمات معروفة ونادراً ما يعزف أي لحن منتظم.

وفي بعض الأمسيات كان يضطجع في مقعده ويغلق عينيه ويداعب أوتار كمانه بلا اهتمام، فتكون النغمات صاخبة وكئيبة في بعض الأحيان، ولكنها تكون رائعة ومبهجة من حين لآخر. من الواضح أنها تعكس الأفكار التي تتملكه، ولكني لم أنجح في تحديد أيّ الاثنين هو السبب وأيّهما النتيجة: هل تساعد الموسيقى أفكارَه أم أن أنغامه تأتي نتيجة لتلك الأفكار؟ وكان من المحتمل أن أثور على ذلك العزف المثير للسخط، لولا أنه كان ينهيه عادة بعزف سلسلة كاملة من معزوفاتي المفضلة في تتابع سريع كمكافأة بسيطة على صبري.

* * *

لم يَزُرْنا أحدٌ لمدة أسبوع أو نحوه، حتى بدأت أظن أن رفيقي كان مثلي بلا أصدقاء. ثم اكتشفت بعد ذلك أن له الكثير من المعارف وأنهم من طبقات مختلفة جداً في المجتمع، منهم شخص ضئيل الحجم شاحب البشرة ذو وجه طويل نحيل وعينين داكنتين، قدّمه لي هولمز على أنه السيد ليستراد، وقد جاء مرتين أو ثلاثاً في أسبوع واحد.



رسم رتشارد غوتْشمِت (١٩٠٢) Richard Gutschmidt (1902)

وفي صباح أحد الأيام زارته شابة أنيقة الملبس ومكَثَت نصف ساعة أو أكثر. وبعد ظهر اليوم ذاته جاء زائر رمادي الشعر رَثّ الهيئة يبدو كبائع متجول، وقد شعرت أنه منفعل جداً، وتبعته سيدة عجوز مبتذلة الملابس. وفي إحدى المرات جاء عجوز محترم أبيض الشعر لمقابلة رفيقي، وفي مناسبة أخرى جاء أحد حمّالي السكك الحديدية مرتدياً زيّه المميز.

كان شيرلوك هولمز يستأذن لشَغْل غرفة الجلوس عند حضور أي من هؤلاء الأفراد الذين لا تجمعهم صفة مميزة، فكنت أنزوي في غرفة نومي حتى انصرافهم. وكان دائماً يعتذر مني لإزعاجي بهذا الشكل فيقول: عليّ أن أستخدم هذه الغرفة كمكان للعمل، وهؤلاء الناس هم عملائي.

وهكذا سنحت لي الفرصة لأسأله سؤالاً صريحاً عن طبيعة عمله، إلا أن لباقتي منعتني من إجبار شخص آخر على الثقة بي، وتخيلت في ذلك الوقت أن لديه سبباً قوياً لعدم ذكر أي تفسير للأمر، ولكنه سرعان ما بدّد تلك الفكرة عندما تطرق إلى الموضوع بإرادته.

كان ذلك في الرابع من آذار (مارس) (وأنا أملك سبباً وجيهاً لتذكّر ذلك التاريخ) حين استيقظت من نومي أبكر من موعدي المعتاد فوجدت أن شيرلوك هولمز لم يَنتهِ من تناول إفطاره بعد. وكانت صاحبة المنزل قد أَلِفَت عادتي في الاستيقاظ المتأخر، لذلك لم تكن قد أعدّت لي مكاني على الطاولة ولا جهّزت قهوتي. وكطبيعة البشر فقد غضبت دون

سبب معقول، فقرعت الجرس وأشرت بغلظة إلى أنني صرت مستعداً لتناول إفطاري، ثم التقطت عن الطاولة مجلة حاولت قطع الوقت بها، بينما أخذ رفيقي يمضغ خبزه المحمّص بصمت. ولفتت انتباهي علامةٌ بالقلم الرصاص على عنوان إحدى المقالات، فبدأت بقراءتها.

كان عنوان المقالة هو «كتاب الحياة»، وقد حاول كاتبها توضيح ما يمكن للملاحظ أن يعرفه من خلال الفحص الدقيق والمنهجي لكل ما يجده في طريقه. بدا لي أن المقالة تمزج بشكل عجيب بين الدهاء والسخف، فالتحليل المنطقي كان دقيقاً محكماً، أما الاستنتاج فقد بدا لي بعيدَ الاحتمال ومُبالَغاً فيه، حيث زعم الكاتب أنه يستطيع بمجرد ملاحظة تعبيرٍ لَحْظيّ (كاختلاجة عضلة أو نظرة عين) أن يسبر غور أفكار الإنسان الخاصة. وطبقاً لما يقوله الكاتب فإن من المستحيل خداع شخص مدرَّب على الملاحظة والتحليل، فاستنتاجاته تكون غيرَ قابلة للخطأ وكأنها مسألة من مسائل إقليدس الهندسية، كما أن نتائجه قد تبدو مذهلة لغير الخبراء لدرجة أنهم ربما اعتبروه عَرّافاً قبل أن يعرفوا الخطوات التي اتبعها للتوصل لتلك النتائج.

قال الكاتب:

إن «المفكر المنطقي» قد يستنتج من قطرة ماء وجود المحيط الأطلسي أو شلّالات نياغارا دون أن يكون قد رأى أو سمع عن أي منهما، فالحياة كلها سلسلة طويلة نعرف طبيعتها حين تظهر لنا إحدى حلقاتها.

ومثل كل المهارات الأخرى لا يكتسب المرء مهارة الاستنتاج والتحليل إلا بالدراسة المطوّلة المتأنية. وقبل التحول لتلك الخصائص المعنوية والعقلية للمسألة (وهي التي تمثل الصعوبة الأكبر) ينبغي للمفكر المنطقي أن يبدأ بإتقان مهارات أكثر بساطة، فيتعلم -مثلاً- عند مقابلة أحد الأشخاص أن يميز بنظرة واحدة تاريخه والمهنة أو الحِرفة التي يزاولها.

ومع أن هذا التمرين قد يبدو تافهاً إلا أنه يشحذ قدرات الملاحظة ويعلّم المرء عن أي شيء يبحث وكيف يبحث، فيمكن -ببساطة- اكتشاف مهنة أي شخص عن طريق ملاحظة أظافره وكُمّ معطفه وحذائه ورُكَب بنطاله وياقة قميصه وتصلّب جلد سبابته وإبهامه، بالإضافة إلى تعبيرات وجهه... فلا يمكن للمحقق الكفء إلا أن يرى أي قضية بوضوح حين تجتمع له كل هذه العناصر.

صحت وأنا أرمي المجلة على الطاولة بعنف: يا له من هراء غير قابل للتصديق!

سأل شيرلوك هولمز قائلاً: ما الأمر؟

كنت قد جلست لتناول الإفطار، فقلت وأنا أشير إلى المقالة بمعلقة أكل البيض: إنها هذه المقالة! أعرف أنك قرأتها لأنك وضعت عليها علامة. لا أنكر أنها كُتبت بذكاء، ولكنها تثير حنقي رغم ذلك. من الواضح أنه رأي نظريّ لشخص كسول يسعى لتأكيد أفكاره من خلال الدراسة النظرية، فلا يمكن تطبيق نظريته عملياً. أحب أن أرى ماذا سيفعل لو أُلقي

به في إحدى عربات الدرجة الثالثة في قطار الأنفاق وطُلب منه معرفة مِهَن كل الركاب. أراهن على خسارته بألف إلى واحد.

قال هولمز بهدوء: سوف تخسر مالك، أما المقالة فقد كتبتها بنفسي.

- أنت؟!

- نعم، فأنا أعشق الملاحظة والاستنتاج، والنظرية التي شرحتها في المقالة (وبدت لك خيالية) ناجحةٌ جداً في الحقيقة، ناجحة لدرجة أنني أعتمد عليها لكسب الرزق.

سألته بلا تفكير: وكيف ذلك؟

- حسناً، إن لي مهنتي الخاصة، وأعتقد أنني الوحيد الذي يزاولها في هذا العالم. أنا محقق استشاري، إن استطعت أن تفهم معنى ذلك. هنا في لندن يوجد الكثير من محقّقي الشرطة والمحققين المستقلين، وحين تتملك الحيرة أياً منهم يأتون إليّ فأرشدهم إلى الطريق الصحيح. إنهم يضعون أمامي كل الأدلة، وعادة ما أنجح في تصحيح مسارهم في التحقيق. يوجد تشابه كبير في الأخطاء التي تنتمي إلى النوع نفسه، لذلك سيكون من الغريب إن كنت تملك عند أطراف أصابعك كل التفاصيل عن ألف خطأ أن تعجز عن توقع الخطأ التالي بعد الألف. إن ليستراد محقق مشهور في الشرطة، وقد احتار مؤخراً في قضية تزوير، ولهذا السبب جاء لزيارتي.

- وماذا عن الآخرين؟

- معظمهم جاؤوني عن طريق وكالات تحقيق خاصة، وكلهم أناس يعانون من مشكلات ويسعون للحصول على الإرشاد، وأنا أستمع إلى قصصهم وينصتون هم إلى ملاحظاتي، وبعد ذلك أُحصّل أتعابي.

قلت: أتريد أن تقنعني بأنك تستطيع حلّ بعض المشكلات المعقدة التي يعجز الآخرون عن فهمها دون أن تغادر غرفتك، مع أنهم شاهدوا بأنفسهم كل التفاصيل؟

- تماماً، فلديّ حدس بهذه الأمور، ولكنّ قضيةً أكثر تعقيداً تظهر من حين لآخر، فأضطر عندها للذهاب إلى مكان وقوعها لأرى الأمور بعيني. وأنت تعرف أنني بارع في كثير من العلوم المتخصصة، فأنا أطبقها على المشكلة فتتضح الأمور بشكل مدهش. إن قواعد الاستنتاج المذكورة في المقالة والتي أثارت سخريتك هي من الأشياء التي لا يمكن الاستغناء عنها في حياتي العملية، والملاحظة هي طبيعتي الثانية. لقد بدوتَ مدهوشاً عندما أخبرتك حين تقابلنا في المرة الأولى أنك جئت من أفغانستان، ألا تذكر؟

- لا شك أن أحداً ما قد أخبرك.

- لا شيء من هذا القبيل. لقد عرفت أنك جئت من أفغانستان بمجرد الملاحظة، فمع الاعتياد الطويل يعمل تسلسل الأفكار بشكل سلس وسريع للغاية داخل عقلي، فيوصلني إلى النتيجة دون بذل أي مجهود مقصود. وقد سار تسلسل أفكاري يومها بالشكل التالي: ها هو سيد محترم من

الهيئة الطبية، ولكن له مظهر الرجل العسكري؛ من الواضح إذن أنه طبيب في الجيش. وقد جاء لتوّه من منطقة استوائية لأن وجهه داكن رغم أن هذا ليس لون بشرته الطبيعي، لأن ليديه بشرةً فاتحةَ اللون. وقد مَرّ بفترة عصيبة ومرضَ كما يظهر بوضوح على وجهه الشاحب، وذراعه اليسرى مصابة، فهو يثبتها بشكل متصلب غير طبيعي. ففي أي مكان بالمنطقة الاستوائية يمكن لطبيب بالجيش البريطاني أن يمرّ بمثل هذه الظروف الصعبة؟ الإجابة الواضحة هي أفغانستان. لم يستغرق تسلسل الأفكار إلا لحظات خاطفة علّقت بعدها بأنك جئت من أفغانستان، فانتابتك الدهشة.

قلت مبتسماً: يبدو الأمر بسيطاً بعد أن شرحتَه. إنك تذكرني بشخصية المحقق دوبان في قصص إدغار آلن بو. لم أظن أن مثل هؤلاء الأشخاص يعيشون خارج القصص!

وقف شيرلوك هولمز وأشعل غليونه ثم قال: لعلك تظن أنك تمدحني عندما تقارنني بدوبان، ولكن دوبان -برأيي- أقل شأناً بكثير، فحيلة اختراقه لأفكار صديقه بإبداء ملاحظة مناسبة بعد صمت دام ربع ساعة حيلة سطحية ومُبالَغ فيها جداً. إن لديه بعض العبقرية في التحليل بالطبع، ولكنه لم يكن ظاهرة بأي حال من الأحوال كما تخيل مؤلفه.

سألته قائلاً: هل قرأت أعمال غابريو؟ هل ترقى شخصية ليكوك إلى تصورك عمّا يجب أن يكون عليه المحقق؟

قال شيرلوك هولمز بنبرةِ سخريةٍ غاضبة: لقد كان ليكوك

فوضوياً تعساً، وميزته الوحيدة هي نشاطه. لقد أشعرَتني قصته بالسقم. كانت مشكلة اكتشاف هوية سجين مجهول، وقد كنت قادراً على حلّها في أربع وعشرين ساعة بينما استغرق ليكوك في حلّها ستة أشهر! من الممكن تحويل قصته إلى كتاب دراسي يتعلم منه المحققون ما يجب عليهم تجنّبه.

شعرت بالسخط إلى حد ما بسبب أسلوبه المتغطرس في الحديث عن شخصيتين كنت معجباً بهما، فسرت إلى النافذة ووقفت أنظر إلى الشارع المزدحم بالخارج، وقلت لنفسي: قد يكون هذا الرجل ماهراً، ولكنه مغرور جداً بالتأكيد.

قال متذمراً: في هذه الأيام لا توجد جرائم ولا يوجد مجرمون، فما فائدة الأذكياء في مهنتنا إذن؟ أعرف جيداً أن باستطاعتي أن أصبح مشهوراً، فليس في مَن عاشوا قديماً أو الذين ما زالوا على قيد الحياة أحدٌ أدخل على التحقيق الجنائي مثلَ هذا الكمّ من الدراسات والموهبة الطبيعية كما فعلت أنا. ولكن ما النتيجة؟ لا جرائم لأحقق فيها... أو أن الجرائم غير متقَنة وذات دافع واضح جداً لدرجة أن أي محقق شرطة قادر على حلها.

كنت ما أزال غاضباً من أسلوبه المتعالي ففضّلت تغيير الموضوع، فسألته وأنا أشير إلى رجل قويّ البنية بسيط الملبس كان يمشي ببطء على الجانب الآخر من الشارع وهو ينظر بقلق إلى الأرقام، وكان يحمل في يده ظرفاً كبيراً أزرق اللون، فبدا جليّاً أنه ناقل رسائل.

قلت: أتساءل عن أي شيء يبحث هذا الشخص؟

قال هولمز: أتقصد ذلك الضابط المتقاعد من البحرية؟

قلت لنفسي: يا له من مُدّع متفاخر! إنه يعرف بالطبع أنني لن أستطيع فحص تخمينه.

لم تكد هذه الفكرة تخطر على بالي حتى لمح الرجلُ الذي كنت أراقبه الرقمَ المكتوب على باب مسكننا، فجرى سريعاً عابراً الطريق. ثم سمعنا طرقات عالية وصوتاً عميقاً في الطابق السفلي، وتلا ذلك صوت خطوات أقدام ثقيلة تصعد الدرج.

قلت لنفسي: ها قد سنحت الفرصة لكشف خداعه. لا بد أنه لم يفكر في هذا الأمر حين ألقى بذلك التخمين العشوائي.

عندما وصل ضيفنا سألته بألطف الأصوات: أتسمح لي أن أسألك عن مهنتك؟

- إنني حاجب يا سيدي، ولكني لا أرتدي الزي الرسمي لأنه في التنظيف.

فسألته وأنا ألقي بنظرة ماكرة على رفيقي: وماذا كنت تعمل في السابق؟

- كنت ضابطاً يا سيدي، في مشاة البحرية الملكية.

ثم خاطب هولمز قائلاً: لن ترسل رداً، أليس كذلك يا سيدي؟

ثم ضرب كاحليه معاً ورفع يده مؤدياً التحية العسكرية وانصرف.

* * *



رسم رتشارد غوتْشمِت (١٩٠٢) Richard Gutschmidt (1902)

الفصل الثالث
لغز شارع لورِسْتون

أعترف بأنني جفلت بشدّة عندما سمعت ذلك الدليل الذي يؤكد صحة نظرية رفيقي، كما ازداد احترامي لقدراته في التحليل المنطقي بشكل مذهل، وإنْ بقيَتْ في ذهني بعض الشكوك، فقد يكون الأمر مجرد عرض أُعِدّ مُسبقاً لإثارة إعجابي، رغم أنني لم أجد سبباً يدعوه لمحاولة إبهاري.

عندما نظرت إليه كان قد أنهى قراءة الرسالة وصارت نظرته شاردة بلا بريق، مما أظهر استغراقه في التفكير. سألت قائلاً: كيف استنتجت ذلك بالله عليك؟

قال بفظاظة: ماذا استنتجت؟

- أنه كان ضابطاً متقاعداً في البحرية.

أجابني بغلظة قائلاً: ليس لديّ وقت لهذه التفاهات! ثم ابتسم وقال: عذراً لوقاحتي، فقد قطعتَ حبل أفكاري. ولكن ربما كان هذا أفضل. حسناً، أحقاً أنك لم تعرف أن ذلك الرجل كان ضابطاً في البحرية؟

- لم أعرف أبداً.

- كانت معرفتي بالأمر أكثر سهولة من شرح أسبابها، فلو طُلب منك إثبات أن حاصل جمع اثنين واثنين يساوي أربعة فقد تجد بعض الصعوبة، ومع ذلك فأنت متأكد تماماً من هذه الحقيقة. حتى وهو يقف على الجانب المقابل من الشارع استطعت رؤية الوشم الأزرق الكبير الذي كان على ظهر يده، وهي عادة مرتبطة بالبحر، كما أن له مشية عسكرية، بالإضافة إلى سوالفه الجانبية المنسَّقة، وهنا وصلنا إلى أنه من البحرية. وقد ظهر اعتداده بنفسه إلى جانب مظهره الموحي بقدر معين من السلطة، ولا بد أنك لاحظت الطريقة التي رفع بها هامته وحرك بها عصاه. كل هذه الحقائق (إلى جانب أنه شخص محترم هادئ في منتصف العمر) جعلتني أعتقد أنه ضابط متقاعد.

- رائع.

قال هولمز (وقد بدا على وجهه أنه سُرَّ بإعجابي ودهشتي الواضحة): بل إنه أمر عادي. حسناً، لقد شكوتُ قبل قليل من ندرة المجرمين المحترفين هذه الأيام، ولكن يبدو أنني كنت مخطئاً. انظر إلى هذا.

قدّم لي الرسالة التي أحضرها الحاجب، فصحت وأنا أقرؤها: يا إلهي، هذا رهيب!

علّق بهدوء: من المؤكد أن الأمر يبدو خارجاً قليلاً عن المألوف. هل يمكن أن تقرأه بصوت مرتفع؟

هذا هو نص الخطاب الذي قرأته أمامه:

عزيزي السيد شيرلوك هولمز،

لقد وقعت حادثة غريبة في المنزل رقم ٣ بشارع لورسْتون المتفرع من طريق بريكستون، فقد رأى الشرطي المناوب ضوءاً هناك في نحو الساعة الثانية صباحاً، فشكّ بخطب ما لأن المنزل خال من السكان. وقد وجد الباب مفتوحاً فدخل إلى البيت، فاكتشف في الغرفة الأمامية الخالية من الأثاث جثة رجل حسن الملبس يحمل في جيبه بطاقة باسم «إينوش دريبر، كليفلاند، أوهايو، الولايات المتحدة الأمريكية».

لم يُسرق شيء ولم نجد أي دليل يشير إلى الطريقة التي لقي بها الرجل حتفه. في الغرفة آثار للدم، ولكن جسمه لا يحمل أي جروح. وقد احترنا في الطريقة التي دخل بها إلى المنزل المهجور، وفي الحقيقة فإن القضية كلها محيّرة.

إذا استطعت الحضور إلى المنزل في أي وقت قبل الثانية عشرة فسوف تجدني هناك، وقد تركت كل شيء على حاله بانتظار رأيك. وإذا لم تستطع الحضور فسوف أزودك بمعلومات أشمل، وسأقدّر عظيم لطفك إن تكرمت بإبداء رأيك بالقضية.

المخلص: توبياس غريغسون

علق صديقي قائلاً: إن غريغسون أذكى ضباط الشرطة البريطانية، فهو وليستراد أفضل المجموعة السيئة في شرطة سكتلنديارد، وكلاهما يتمتع بالذكاء والنشاط، ولكنهما

تقليديان بشكل مريع، كما أن كلاً منهما يغار من صاحبه، كما لو كانا فتاتين تتنافسان في مسابقة للجمال! سوف نجد بعض التسلية في هذه القضية لو كُلّف الاثنان بالبحث فيها.

ذهلت من الطريقة الهادئة التي تحدّث بها فصحت قائلاً: لا وقت لنضيّعه بالتأكيد، فهل أذهب وأستدعي لك عربة أجرة؟

قال: لست متأكداً من رغبتي في الذهاب، فأنا أغدو أكسلَ شخص على وجه الأرض عندما أصاب بنوبة من نوبات الكسل العُضال.

- عجباً! إنها تلك الفرصة التي كنت تتوق إليها.

- وما شأني بالأمر يا صديقي العزيز؟ ولو أنني حللت القضية فتأكد أن الفضل كله سيعود إلى غريغسون وليستراد وشركائهما؛ هذا ما يحدث حين لا يعمل المرء في الشرطة الرسمية.

- ولكنه يتوسل إليك أن تساعده.

- نعم، فهو يعرف أنني أفضل منه ويعترف بذلك لي خاصة، ولكنه سيأكل لسانه قبل أن يصرّح بذلك لشخص ثالث! حسناً، لا بأس، لنذهب لإلقاء نظرة، فقد أحل القضية دون الاتكال على أحد، وحتى لو لم أستفد من عملي فسأحظى بفرصة للسخرية منهما. هيا بنا.

ثم أسرع بارتداء معطفه وأخذ يتحرك بنشاط أظهر أن

نوبة النشاط قد حلّت مكان نوبة عدم المبالاة. وقال: أحضر قبعتك.

- أتريدني أن أذهب معك.

- نعم، إذا لم يكن لديك ما هو أفضل لتفعله.

بعد دقيقة كنا في عربة أجرة متجهَين بسرعة إلى طريق بريكستون.

* * *

كان صباحاً ضبابياً مُعتماً، وقد غشيَت أسطحَ المنازل طبقةٌ مُغبَرّة كما لو كانت انعكاساً لأرض الشارع الموحلة في الأسفل. كانت معنويات رفيقي في أفضل حال، وراح يثرثر بالحديث عن أنواع الكمانات ويقارن بينها. أما أنا فقد جلست بصمت، حيث كان لرداءة الجو وكآبة المهمّة التي كنا على وشك الاضطلاع بها أثر سلبي على حالتي النفسية.

قلت أخيراً مُقاطعاً خطاب هولمز المطوَّل عن الآلات الموسيقية: لا تبدو مشغول البال بالقضية التي نحن بصدد دراستها؟

أجاب قائلاً: ليست لدينا معلومات عنها بعد، ومن الخطأ الجسيم وضع النظريات قبل الحصول على الأدلة، فهذا يؤثر في حصافة حكمك.

قلت معلقاً وأنا أشير بإصبعي: سوف تحصل على ما

تريده من معلومات قريباً، فها هو طريق بريكستون، وذلك هو المنزل المقصود هناك عن بُعد إن لم أكن مخطئاً.

- إنه المنزل بالفعل. قف أيها السائق، توقف.

كنا ما نزال على بُعد مئة متر أو نحوها، ولكنه أصرّ على نزولنا من العربة، فأكملنا رحلتنا على الأقدام.

كان شكل المنزل رقم ٣ في شارع لورستون ينذر بالسوء. كان واحداً من أربعة منازل تقع خلف طريق صغير يفصلها عن الشارع، وكان اثنان منها مسكونَين، أما الآخران فكانا شاغرَين. وقد ظهر المنزل الأخير بثلاثة صفوف من النوافذ الكئيبة الخالية التي بدت مهجورة موحشة، لولا انتشار لافتات كُتبت عليها هنا وهناك على زجاج النوافذ المغبشة كلمة «للإيجار».

تناثرت مجموعات متفرقة من النباتات الباهتة في حديقة صغيرة تفصل كل منزل من تلك المنازل عن الشارع، ويقطعها ممر ضيّق مغطى بالحصى الصغير. كان المكان كله موحلاً بسبب المطر الذي ظل يهطل طوال ليلة أمس، وقد أحاط بالحديقة سور حجري ارتفاعه متر ويعلوه إطار من العوارض الخشبية، واستند إلى السور شرطي قوي أحاطت به زمرة صغيرة من المتسكعين الذين يمدون أعناقهم ويرهقون عيونهم أملاً في أن يلمحوا شيئاً مما يجري في الداخل، ولكن بلا جدوى.

تخيلت أن شيرلوك هولمز سيدخل إلى المنزل على

الفور وينغمس في دراسة اللغز، ولكن يبدو أن هذه الفكرة لم تخطر بباله، فقد أخذ يتسكع على الرصيف ذهاباً وإياباً وقد ظهرت عليه أمارات اللامبالاة، وهو الأمر الذي بدا لي غريباً متكلَّفاً في تلك الظروف. أخذ ينظر بوجه جامد إلى الأرض والسماء والمنازل المقابلة والسياج الخشبي، وبعد أن أنهى فحصه بدأ يمشي ببطء على طول الممر، أو بالأحرى على طول الحافة العشبية التي تحيط بالممر، وقد ثبّت عينَيه على الأرض. توقف مرتين ولاحظت أنه كان يبتسم، ومرة سمعته يطلق صيحة رضا.

كانت على التربة الطينية المبللة آثار أقدام كثيرة، ولكن بما أن رجال الشرطة مشَوا فوق الأرض ذهاباً وإياباً فلم أستطع أن أفهم كيف راود رفيقي الأملُ بأنه سيستفيد منها بأي شيء. ولكنني كنت قد حصلت سابقاً على دليل فريد على ملاحظته الفذّة، مما جعلني أثق في أنه يستطيع رؤية الكثير ممّا لا أراه.

استقبلَنا عند باب البيت رجلٌ طويل له شعر أصفر فاتح ووجه شاحب وفي يده دفتر ملاحظات، وقد تقدم سريعاً فصافح رفيقي واندفع بالكلام بانفعال واضح، قال: إن حضورك لطف كبير بالفعل. لقد تركت كل شيء على حاله.

أجاب صديقي وهو يشير إلى الممر: ما عدا ذاك، فلو أن قطيعاً من الجواميس مرّ على هذا الممر لما تسبب في فوضى أكبر من هذه! لا شك أنك توصلت إلى استنتاجاتك الخاصة قبل أن تسمح بذلك يا غريغسون؟

راوغ المحقق قائلاً: لقد كان عليّ الكثير لأقوم به داخل المنزل، فاعتمدت على زميلي ليستراد ليهتمّ بهذا الأمر.

نظر هولمز إليّ ورفع حاجبه بسخرية قائلاً: بوجود رجال مثلك أنت وليستراد في ساحة الجريمة لن يبقى الكثير ليكتشفه شخص ثالث.

فرك غريغسون يديه بغرور وقال: أعتقد أننا عملنا كل ما يجب عمله، ولكنها قضية غريبة، وأنا أعرف مَيلك لهذا النوع من القضايا.

سأله هولمز: هل وصلت إلى هذا المكان بعربة أجرة؟

- لا يا سيدي.

- ولا ليستراد.

- ولا هو أيضاً.

قال هولمز: إذن لندخل لإلقاء نظرة على الغرفة.

بعد ذلك السؤال الخارج عن السياق سار إلى المنزل بخطوات واسعة، يتبعه غريغسون الذي بدا الذهول على وجهه. قادنا ممر يكسوه التراب إلى المطبخ والغرف، وكان فيه بابان، واحد على كل جانب. كان واضحاً أن أحدهما مغلق منذ عدة أسابيع، أما الآخر فكان باب غرفة الطعام، وهي الغرفة التي وقعت فيها الجريمة الغامضة. دخل هولمز إلى الغرفة وتبعته يتملكني ذلك الشعور الحزين الذي يثيره الموت في القلوب.

كانت غرفة كبيرة مربعة الشكل، وقد ساعد خُلُوّها من الأثاث على الإيحاء بأنها أكبر ممّا هي عليه في الحقيقة. كانت الجدران مزيّنة بورق حائط زاهي الألوان سوقي الطراز وقد لطّخه العفن في عدة أماكن، كما انفصلت قطع منه عن الجدار وتدلت إلى الأسفل هنا وهناك. وفي الجهة المقابلة للباب مدفأة مبهرجة يعلوها رف من الرخام الأبيض وُضعت في زاويته شمعة حمراء. ولشدة اتساخ النافذة الوحيدة في الغرفة كان الضوء ضعيفاً ضبابياً وألقى بظلال رمادية كئيبة على كل شيء فيها، وزادت من إعتام الغرفة طبقةٌ من التراب الكثيف كانت تكسو الغرفة كلها.

لم ألاحظ كل تلك التفاصيل إلا لاحقاً، فقد تركز انتباهي فور دخولنا على الجسد الشاحب الذي تمدد بلا حراك على الأرض الخشبية، وعيناه الخاليتان من التعبير تحدقان إلى سقف باهت اللون في الأعلى. كانت الجثة لرجل في نحو الأربعين من العمر، متوسط الجسم عريض المنكبين وله شعر أسود مجعَّد ولحية غير محلوقة. وكان يرتدي بنطالاً فاتح اللون ومعطفاً ثقيلاً من قماش الجوخ الأسود يصل إلى ركبتيه، بالإضافة إلى قبّعة رسمية أنيقة مُعتنَى بها جيداً كانت ملقاة بجواره على الأرض.

ضَمّ القتيل قبضتيه بإحكام وكانت ذراعاه ممددتين إلى الخارج، بينما تشابكت أطرافه السفلية كما لو أن احتضاره كان مؤلماً، وظهرت على وجهه المتصلب تعبيرات تنمّ عن الرعب والكراهية بشكل لم أشهده في حياتي على وجه إنسان. وكان

في التواء ملامح وجهه بذلك الشكل الفظيع الحاقد وفي جبهته الضيقة وأنفه الأفطس وفكّه المضلّع ما أعطى الرجل الميت مظهر القرد! وقد زادت وضعية جسمه الملتوية غير الطبيعية من هذا الإيحاء.



رسم رتشارد غوتْشمِت (١٩٠٢) Richard Gutschmidt (1902)

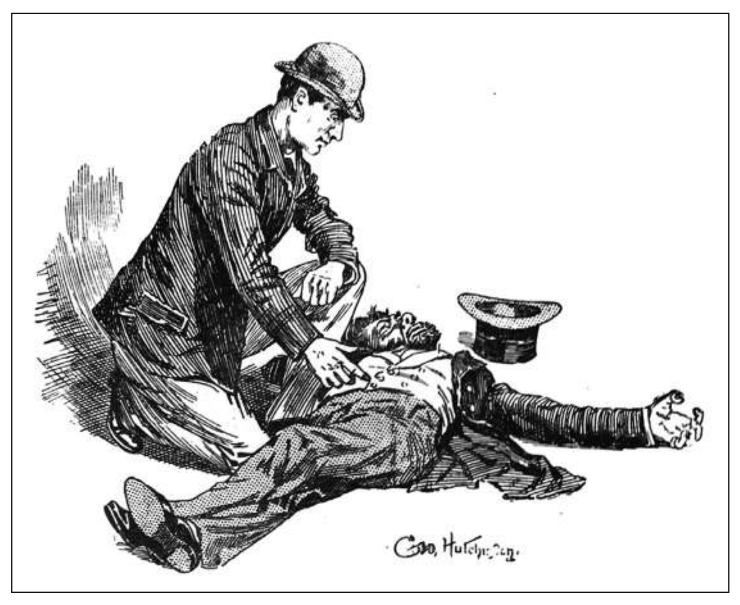
لقد رأيت الموت في أشكال كثيرة، ولكنه لم يَبدُ لي قَطّ في مظهر أكثر هَولاً منه في تلك الغرفة الكئيبة المظلمة التي تطل على واحد من طرق لندن الرئيسية!

وقف ليستراد برشاقته المعهودة وشكله الذي يشبه أحد القوارض عند مدخل الغرفة، وبعد أن حيّاني أنا ورفيقي قال معلقاً: ستكون هذه القضية سبباً في ضجة كبيرة يا سيدي؛ إنها تفوق كل ما رأيته غرابةً، على كثرة ما رأيت.

قال غريغسون: لم نعثر على أي دليل.

أضاف ليستراد: لا شيء على الإطلاق.

اقترب هولمز من الجثة وركع على الأرض ليفحصها



رسم جورج هَتْشِنْسون (١٨٩١) George Hutchinson (1891)

بدقة، ثم سأل وهو يشير إلى بعض كتل الدم المتخثر التي تناثرت حولنا: هل تأكدتما من عدم وجود أي جرح؟

قال المحققان: تأكدنا تماماً.

- إذن فإن هذا الدم يخص شخصاً آخر، ومن المفترض أن يكون هو القاتل إذا كان ما نراه هنا جريمة قتل. هذه القضية تذكرني بالظروف التي صاحبَت موت فان جانسن في أوترِخْت بهولندا عام ١٨٣٤. هل تذكر هذه القضية يا غريغسون؟

- لا يا سيدي.

- اقرأها، عليك حقاً أن تقرأها. فليس في هذا العالم شيء جديد، بل كل شيء يتكرر فيه.

وفيما هو يتحدث كانت أصابعه الرشيقة تتحرك بخفّة هنا وهناك، وفي كل مكان تتحسس وتضغط وتفك أزراراً وتفحص أشياء، في حين اكتست عيناه بنفس التعبير الشارد الذي سبق لي أن لاحظته. انتهى الفحص بسرعة شديدة لدرجة أن المرء يكاد لا يتصور الدقة التي قُضي بها، وأخيراً تشمم شفتَي الميّت، ثم نظر إلى نعل حذائه المصنوع من الجلد الأسود المصقول الصلب اللامع.

سأل قائلاً: ألم تحرّكوه على الإطلاق؟

- لم نحركه إلا بالقدر الذي يسمح لنا بفحصه.

قال: يمكنكم نقله إلى المشرحة الآن، فقد حصلنا على

كل المعلومات التي نستطيع الحصول عليها.

كان غريغسون قد أعدّ حمالة وأربعة رجال، دخلوا إلى الغرفة عندما استدعاهم فحملوا جثة الرجل الغريب ليأخذوه إلى الخارج، ولكن حين رفعوه سمعنا رنيناً لصوت خاتم وقد تدحرج على الأرض، فالتقطه ليستراد بسرعة ونظر إليه بِحَيرة، ثم صاح قائلاً: كانت امرأة هنا! هذا خاتم زواج امرأة.

وضع ليستراد الخاتم في راحة يده ومدّها وهو يتكلم، فتجمعنا كلنا حوله وأخذنا نحدّق إليه. لم يكن ثمة شك في أن تلك الدائرة المصنوعة من الذهب الخالص قد زَيّنت إصبع إحدى العرائس في يوم من الأيام.

قال غريغسون: هذا يزيد الأمر تعقيداً، ويعلم الله أن القضية كانت معقدة بما يكفي من قبل!

قال هولمز: أأنت متأكد أن هذا الخاتم لن يسهّل القضية؟ لن نكتشف شيئاً بالتحديق إليه. ماذا وجدت في جيوبه؟

قال غريغسون وهو يشير إلى بعض الأغراض المكوّمة: إنها كلها هنا. ساعة ذهبية من صناعة بارّو في لندن، وسلسلة ذهبية ماركة آلبرت، وهي ثقيلة جداً وصلبة. وخاتم ذهبي، ودبوس ذهبي على شكل كلب بولدوغ عيناه من أحجار الياقوت، وعلبة بطاقات من الجلد الروسي فيها بطاقات باسمه، وقد نُقشت على بطانتها الجلدية الداخلية هذه الأحرف «إ ج د». لم يحمل محفظة، ولكن كان معه مبلغ نقدي، سبعة

جنيهات وثلاثون بنساً، ونسخة جيب من كتاب بوكاكسيو «ديكامرون»، وقد كُتب اسم جوزف ستانغرسون على الصفحة البيضاء في أول الكتاب. بالإضافة إلى خطابين، أحدهما موجَّه



رسم ديفيد هنري فرِسْتون (١٨٨٧) David Henry Friston (1887)

إلى «إج دريبر» والآخر إلى «جوزف ستانغرسون».

- وما هو العنوان؟

- مركز استلام البريد الأمريكي في شارع ستراند، والمطلوب أن تبقى هناك حتى يطلبها صاحبها. الخطابان من شركة غويون للسفن البخارية ويشيران إلى موعد إبحار سفنهما من ليفربول، وهما دليل على أن هذا الرجل التعس الحظ كان على وشك العودة إلى نيويورك.

- هل أجريتما أي تحريات عن ذلك المدعو ستانغرسون؟

قال غريغسون: لقد صنعت ذلك على الفور، فأرسلت إعلاناً لكل الصحف وذهب أحد رجالي إلى مركز استلام البريد الأمريكي، ولكنه لم يعد بعد.

- هل أرسلت إلى كليفلاند؟

- نعم، أرسلنا برقية هذا الصباح.

- وكيف صغت تساؤلاتك؟

- ببساطة سردت تفاصيل ما حدث وقلت إننا سنكون ممتنّين لأي معلومات قد تفيدنا في كشف ملابسات القضية.

- ألم تطلب تفاصيل خاصة بأي من الأمور التي بدت لك مُلِحّة؟

- سألت عن ستانغرسون فقط.

- ألم تسأل عن شيء آخر؟ ألا تجد أن هذه القضية تتمحور حول ملابسات أخرى؟ هل سترسل برقية ثانية؟

قال غريغسون بنبرة انزعاج: لقد قلت كل ما أودّ قوله.

ضحك شيرلوك هولمز لنفسه، وبدا وكأنه على وشك إبداء ملاحظة ما عندما عاد ليستراد وهو يفرك يديه بغرور وثقة. قال: لقد اكتشفت اكتشافاً في غاية الأهمية يا سيد غريغسون، وكان من الممكن أن لا ينتبه له أحد لولا فحصي الدقيق للجدران.

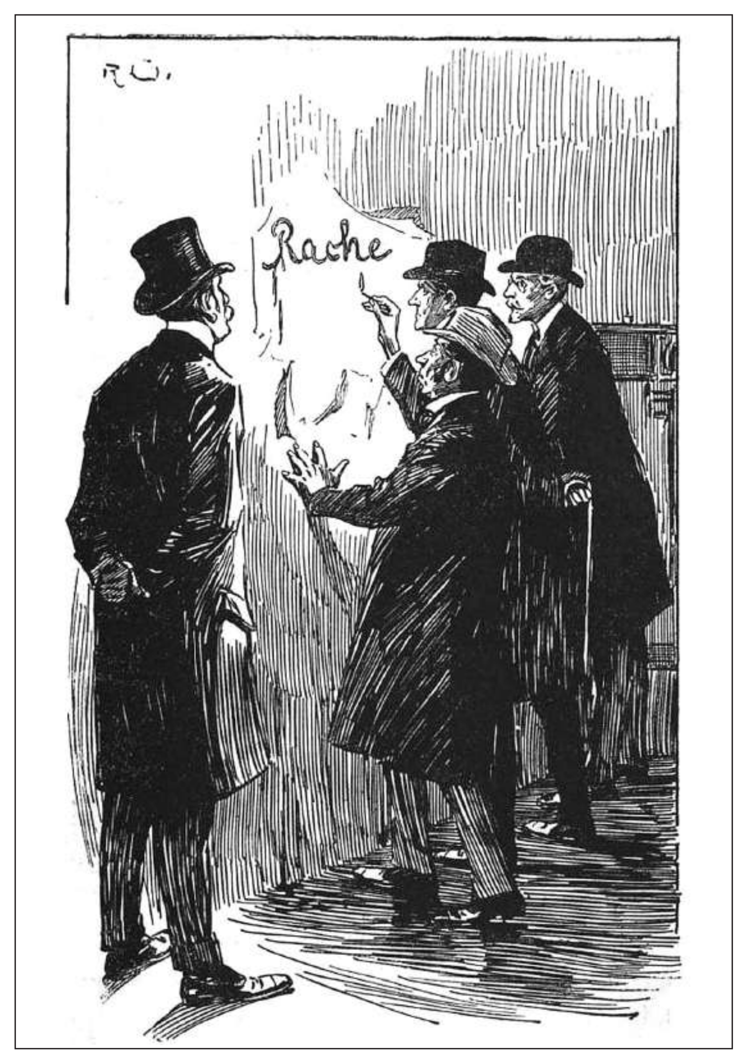
لمعت عينا الرجل الضئيل وهو يتحدث، وكان من الواضح أنه يكبت غبطته الشديدة لتفوقه على زميله. ثم قال وهو يعود مسرعاً إلى الغرفة التي بدا جوّها أكثرَ صفاء بعد نقل نزيلها المرعب منها: ادخلوا، والآن قفوا هنا.

أشعل عود ثقاب ورفعه إلى الأعلى أمام الجدار، ثم قال بانتصار: انظروا إلى هذا.

أشرت من قبل إلى أن ورق الجدران انفصل في بعض الأماكن، وفي ذلك الركن بالذات كان جزء كبير منه قد انسلخ عن الجدار مُظهراً مساحة من الجدار المجصَّص، وفي ذلك الجزء المكشوف كُتبت كلمة واحدة بخط سيّئ وبحروف من الدم الأحمر: «راشي».

بدا ليستراد كما لو كان مُخرجَ مسرحية يعرض عمله، قال: ما رأيكم بهذا؟ لم ينتبه أحد له لأنه كان في الزاوية الأكثر

عتمة في الغرفة، ولم يخطر ببال أحد أن ينظر هناك. لقد كتب القاتل هذه الكلمة بدمه (أو بدمها). أترى تلك البقعة حيث سال الدم على الجدار؟ على كل حال هذا يقضي على



رسم رتشارد غوتْشمِت (١٩٠٢) Richard Gutschmidt (1902)

فكرة الانتحار. أمّا إن كنتم تتساءلون عن سبب اختيار هذه الزاوية للكتابة فسوف أخبركم به. أترون تلك الشمعة على رف المدفأة؟ لقد كانت مضاءة في ذلك الوقت، وحين تُضاء تصبح هذه الزاوية أكثرَ أجزاء الجدار نوراً بدلاً من أن تكون أكثرَها عتمة كما هي الآن.

سأله غريغسون بنبرة فيها استهانة بقيمة الاكتشاف: وما الذي يعنيه هذا الأمر الآن وقد اكتشفته؟

- معناه؟ عجباً، إنه يعني أن الكاتب كان ينوي كتابة اسم امرأة تدعى راشيل، ولكن شيئاً ما أزعجه (أو أزعجها) قبل أن يتسنى له (أو لها) إنهاءها. وانتبهوا لكلامي حين أقول إننا سنجد عند انتهائنا من حل القضية أن امرأة تُدعى راشيل لها علاقة بالقضية... حسناً، يمكنك أن تضحك كما تريد يا سيد هولمز، فقد تكون شديد المهارة والذكاء ولكن النتيجة ستثبت من هو الأفضل.

قال رفيقي الذي كان قد أثار حفيظة الرجل الضئيل بانفجاره في نوبة من الضحك: أرجو منك حقاً المعذرة! لا بدّ أن نعترف بفضلك لأنك سبقتنا إلى اكتشاف هذا الأمر، وهو يدل بالتأكيد -كما ذكرتَ- على أنه كُتب بيد الشريك الآخر في لغز ليلة أمس. لم يُتَح لي الوقت لفحص الغرفة بعد، لذلك سأبدأ بفحصها الآن بعد إذنكم.

فيما كان يتحدث سحب هولمز من جيبه شريط قياس وعدسة مكبرة، وأسرع يتجول في أنحاء الغرفة مستخدماً

هاتين الأداتين ومُحْدثاً ضجة كبيرة، فتارة يتوقف وتارة يركع، بل إنه تمدد راقداً على بطنه في إحدى المرات. وقد استُغرق كلياً في مهمته حتى بدا وكأنه نسي وجودنا، حيث أخذ يثرثر لنفسه همساً طوال الوقت، كما استمر بإطلاق الصيحات والتنهدات والصفير والصيحات الصغيرة الموحية بالتشجيع والأمل. وبينما كنت أراقبه تذكرت -بشكل تلقائي- كلاب صيد الثعالب الأصيلة المدربة تدريباً جيداً وهي تسرع مندفعة في الغابة، تتقدم حيناً وتتراجع حيناً وهي تعوي متلهفة حتى تصل إلى الأثر الضائع.

استمر هولمز في بحثه لأكثر من عشرين دقيقة وهو يقيس بأقصى دقة ممكنة المسافةَ بين علامات كانت غير مرئية لي تماماً، وكان يعمد إلى قياس الجدار نفسه من حين لآخر بنفس الطريقة غير المفهومة. وقد جمع بعناية هائلة من أحد الأماكن كومة صغيرة من تراب رمادي اللون كان على الأرض فوضعه في ظرف صغير. وأخيراً فحص الكلمة المكتوبة على الجدار بعدسته مولياً كل حرف من أحرفها عنايته الفائقة. وحين انتهى من ذلك بدا عليه الرضا وأعاد الشريط والعدسة إلى جيبه.

علق قائلاً وهو يبتسم: يقولون إن العبقرية هي القدرة المطلقة على تحمل الألم. وهو تعريف سيّئ جداً، ولكن يمكن تطبيقه على عمل المحقق.

راقب كل من غريغسون وليستراد مناوراته بفضول كبير وببعض الحقد أيضاً، وكان من الواضح أنهما فشلا في فهم

حقيقة أن أبسط حركات شيرلوك هولمز كانت دائماً موجَّهة نحو نهاية عملية محددة، وهو الأمر الذي كنت قد بدأت بإدراكه أخيراً.

سألاه: ما رأيك بالقضية؟

قال صديقي: لو أطلعتماني على مسار التحقيق سأكون سعيداً بتقديم أي مساعدة ممكنة، أما الآن فأنا أرغب في الحديث مع الشرطي الذي اكتشف الجثة، فهل لي باسمه وعنوانه لو تكرمتما؟

نظر ليستراد في مفكرته وقال: اسمه جون رانس، وسوف تجده في المنزل رقم ٤٦ في ساحة أودلي، كننغتون، بارك غيت.

كتب هولمز العنوان وقال: هيا يا دكتور، سنذهب بحثاً عنه. ثم أكمل وهو ينظر إلى المحققَين: قبل انصرافي سأخبركما بما قد يساعدكما في حل القضية. لقد ارتُكبت هنا جريمة قتل، والقاتل رجل يزيد طوله على مئة وثمانين سنتمتراً، وهو في مقتبل العمر، وله قدم صغيرة بالنسبة لطوله، وكان ينتعل حذاء طويلاً غليظاً مقدمته مضلّعة، ويدخن سيغاراً من نوع ترينكنوبولي، وقد وصل إلى هذا المكان مع ضحيته في عربة أجرة ذات أربع عجلات يجرّها حصان له ثلاث حدوات قديمة وواحدة جديدة في حافره الأمامي الأيمن. وعلى الأرجح فإن للقاتل وجهاً متورداً، وأظافر أصابع يده اليمنى طويلة بشكل ملحوظ. هذه بضع تلميحات فقط، ولكنها قد تساعدكما.

تبادل ليستراد وغريغسون ابتسامة متشكّكة، ثم سأل الأخير: ولكن لو أن هذا الرجل قد قُتل فكيف حصل الأمر؟

قال شيرلوك هولمز باقتضاب: بالسم.

ومشى بخطوات واسعة ليخرج من الغرفة، إلا أنه التفت قبل عبور الباب وقال: إن كلمة «راشي» (المكتوبة بحروف لاتينية) تُلفَظ بالألمانية «راخِهْ»، ومعناها «انتقام»، لذلك لا تضيّعا الوقت بالبحث عن الآنسة راشيل.

ألقى هولمز بتلك الملاحظة الأخيرة ثم انصرف تاركاً خلفه المحققَين المتنافسَين مشدوهَين.

❊ ❊ ❊

الفصل الرابع
أقوال جون رانس

غادرنا المنزل رقم ٣ في شارع لورستون في الساعة الواحدة، فقادني شيرلوك هولمز إلى أقرب مكتب تلغراف حيث أرسل برقية طويلة، ثم أوقف عربة أجرة وأمر السائق بأن يأخذنا إلى العنوان الذي زوّدنا به ليستراد.

عندما انطلقت بنا العربة قال: لا شيء يضاهي الأدلة التي نحصل عليها من موقع الجريمة مباشرة، وقد كوّنت رأياً كاملاً عن القضية في حقيقة الأمر، إلا أننا يجب أن نحصل ما نستطيع جمعه من أدلّة ومعلومات قبل إثباته بشكل نهائي.

قلت: إنك تثير دهشتي يا هولمز، فمن المؤكد أنك لست واثقاً من صفات القاتل التي ذكرتها بنفس الدرجة التي تتظاهر بها.

أجابني قائلاً: لا مجال للخطأ. أول ما لاحظته عند وصولي إلى المكان أن عجلات عربة أجرة قد تركت أثراً واضحاً بالقرب من حافة الرصيف. وبما أن المطر لم يهطل لأسبوع قبل ليلة أمس فلا بد إذن أن العجلات التي تركت

الأثر الغائر كانت هناك ليلة أمس. ثم إنني لاحظت آثاراً لحوافر حصان، وكان أثرٌ واحد منها أوضحَ من الثلاثة الأخرى فعرفت أن في ذلك الحافر حدوة جديدة. وحيث إن العربة كانت في المكان بعد بدء هطول المطر ولم تكن فيه هذا الصباح (وهو ما أكده غريغسون) فهذا دليل على أنها ذهبت هناك ليلاً، إذن فقد نقلت هذين الشخصين إلى المنزل.

قلت: يبدو الأمر الآن واضحاً بما فيه الكفاية، ولكن كيف عرفت طول الرجل؟

- في تسع قضايا من عشر يمكن تحديد طول الشخص بقياس طول خطوته، وهي عملية حسابية بسيطة، ولكن لا داعي لإزعاجك بسرد الأرقام. وقد رأيت أثر خطوات الرجل مطبوعاً على الطين في الخارج وعلى التراب الذي غطى أرض الغرفة في الداخل. ثم أتيحت لي الفرصة لأتأكد من حساباتي مرة أخرى، فعندما كتب الرجل تلك الكلمةَ على الجدار قادَتْه غريزته إلى كتابتها على مستوى نظره، فقست ارتفاع الكتابة عن الأرض. إنه أمر في غاية السهولة.

قلت: وماذا عن عمره؟

- حسناً، إذا استطاع الرجل أن يقطع متراً ونصف متر في خطوة واحدة فلا يمكن أن يكون قد دخل مرحلة متقدمة من عمره. من الواضح أنه عبَرَ فوق بركة موحلة في ممر الحديقة كان هذا عرضَها، فقد دار صاحب الحذاء الجلدي الصلب اللامع حول البركة، أما صاحب الحذاء ذي المقدمة المضلّعة

فقد قفز فوقها. ليس في الأمر أي غموض، فأنا لا أصنع شيئاً سوى تطبيق بعض قواعد الملاحظة والاستنتاج التي أوصيت بها في تلك المقالة. أبقي شيء ممّا يحيرك؟

قلت: أظافر الأصابع وسيغار ترينكنوبولي.

- لقد كتب الرجل تلك الكلمةَ على الجدار بسبّابته بعدما غمسها في الدم، وقد أتاحت لي العدسة المكبرة أن ألاحظ أن الجص على الجدار قد خُدش بشكل طفيف أثناء الكتابة، وهو أمر لن يحدث لو كان ظفر الرجل ناعماً ومقصوصاً. وقد جمعت بعض الرماد المتناثر على الأرض كما رأيت، وكان داكنَ اللون وعلى شكل رقائق، ومن خبرتي بالسيغار عرفت أن هذا الرماد لا ينتج إلا عن ماركة ترينكنوبولي. لقد أجريت دراسة خاصة عن رماد السيغار، بل إنني كتبت في الحقيقة بحثاً عن هذا الموضوع، وأنا أفخر بأنني قادر على تمييز رماد أي نوع من أنواع السيغار المعروفة بنظرة واحدة. مثل هذه التفاصيل هي التي تميز المحقق الماهر عن المحققين العاديين من أمثال غريغسون وليستراد.

- وماذا عن الوجه المتورد؟

- آه، هذا كان تخميناً أكثر جرأة، رغم أنني لا أشك في صحته. ولكن لا تسألني عنه في هذه المرحلة من القضية.

وضعت يدي فوق حاجبي وقلت: إن رأسي يدور، فكلما فكر المرء بالقضية كلما ازدادت غموضاً. ما سبب وجود هذين الرجلين (هذا إن كان في المكان رجلان حقاً) داخل المنزل

المهجور؟ وما الذي آلَ إليه مصيرُ سائق العربة الذي أوصلهم إلى هناك؟ وكيف يمكن لشخص أن يجبر شخصاً آخر على تناول السم؟ ومن أين جاء كل ذلك الدم؟ وما هو هدف القاتل طالما أن السرقة لم تكن هي الدافع وراء الجريمة؟ وما سبب وجود خاتم المرأة هناك؟ والأهم من ذلك: ما الذي جعل الرجل الثاني يكتب كلمة «انتقام» بالألمانية قبل أن يهرب؟ أعترف بأنني لا أجد أي طريقة ممكنة للتوفيق بين كل تلك الحقائق.

ابتسم رفيقي باستحسان وقال: لقد لخصتَ صعوبات الموقف بدقّة وحكمة، فالكثير ما يزال غامضاً، بالرغم من أنني كوّنت رأياً بخصوص كل الحقائق الرئيسية في القضية. أما اكتشاف ليستراد الواهي فهو ببساطة شرَك هدفه إبعاد الشرطة عن الطريق الصحيح، وذلك عن طريق الإيحاء بأسباب سياسية وجماعات سرّية وراء الجريمة. ولكن القاتل لم يكن ألمانياً حقاً، فالألماني لا يكتب حروف لغته بهذه الطريقة، إنها طريقة الإنكليز في الكتابة! لذلك نستطيع القول بثقة إن هذه الكلمة لم يكتبها ألماني حقيقي، بل كتبها مقلّد أخرق لم يحسن تمثيل دَوره، وهي في الحقيقة خدعة لتحويل التحقيق إلى الاتجاه الخطأ. لن أخبرك بالمزيد عن القضية يا دكتور، فأنت تعرف أن الساحر لا ينال أي إعجاب بعد أن يشرح سرّ خدعته، فلو شرحت لك كل أساليب عملي ستستنتج أنني شخص عادي جداً بعد كل شيء!

أجبته قائلاً: لن أفعل ذلك أبداً، فقد جعلتَ الاستنتاج أقربَ ما يمكن أن يكون إلى العلم الدقيق.

تدفق الدم في وجه رفيقي فرحاً بما أقول وبالطريقة الجادة التي نطقت بها بتلك الكلمات. وكنت قد لاحظت بالفعل أنه سريع التأثر بالمديح الذي يخص عمله الفنّي، تماماً كما تفرح أي فتاة بجمالها!

قال: حسناً، سأخبرك بشيء واحد آخر. لقد جاء صاحب الحذاء الجلدي الصلب وصاحب الحذاء ذي المقدمة المضلّعة معاً في العربة نفسها، وقد سارا معاً على طول الممر متقاربيَن وقد شبك أحدهما ذراعه بذراع الآخر على الأرجح. وعندما دخلا إلى المنزل أخذا يتجولان في الغرفة، أو بالأحرى فإن صاحب الحذاء الجلدي وقف ثابتاً في حين أخذ صاحب الحذاء ذي المقدمة المضلّعة يمشي ذهاباً إياباً). وقد عرفت من قراءة الأثر على التراب أن انفعاله تزايد وهو يمشي، وقد ظهر هذا الانفعال من اتساع طول خطواته. يبدو أنه كان يتحدث طوال الوقت ويتحرك بغضب، ثم وقعت المأساة. لقد أخبرتك كل ما أعرفه أنا نفسي الآن، أما الباقي فمجرّد تخمين واستنتاج. على أية حال فإن لدينا أساساً جيداً للعمل نستطيع البدء منه، ويجب علينا الإسراع، فأنا راغب بالذهاب إلى الحفلة الموسيقية لسماع نورمان نيرودا هذا المساء.

* * *

دارت هذه المحادثة بينما كانت عربتنا تشق طريقها عبر سلسلة طويلة متتابعة من الشوارع القذرة والطرق الفرعية الموحشة، وقد توقف السائق أخيراً في أكثر تلك الشوارع قذارة وكآبة وقال: ستجدون أودلي كورت هناك، وسوف

أكون هنا بانتظاركما عندما ترجعان.

لم يكن أودلي كورت بالمكان الجذاب، فقد قادَنا ممر ضيق إلى ساحة واسعة محاطة بالأبنية من جوانبها الأربعة ومرصوفة بالبلاط المسطح ومزدحمة بالسكان. سرنا بصعوبة بين مجموعات من الأطفال القذرين ثم عَبْرَ صفوف من الملاءات الباهتة المعلقة على حبال الغسيل، حتى وصلنا إلى المنزل رقم ٤٦، وكان بابه مزيناً بلافتة صغيرة من النحاس



رسم رتشارد غوتْشمِت (١٩٠٢) Richard Gutschmidt (1902)

حُفر عليها اسم رانس. وبالسؤال عنه وجدنا أن الشرطي كان نائماً، فقادونا إلى قاعة استقبال صغيرة لانتظاره.

جاء في الحال وقد بدا عليه بعض الضيق لأننا أيقظناه من نومه وقال: لقد قدمت تقريري إلى الإدارة.

أخرج هولمز من جيبه نصف جنيه وأخذ يلعب به بين أصابعه وقد بدا الاهتمام على ملامحه وقال: لقد فكرنا أن من الأفضل أن نسمع الكلام منك مباشرة.

أجاب الشرطي وعيناه على العملة الذهبية: سيكون من دواعي سروري أن أخبرك بكل ما أعرف.

عقد رانس حاجبَيه كما لو أنه عقد العزم على عدم إغفال أي شيء في حكايته، ثم قال: سأقص عليك ما حدث منذ البداية. تبدأ نوبَتي في الحراسة في العاشرة مساء وتستمر حتى السادسة صباحاً. في الحادية عشرة وقع عراك في مقهى «وايت هارت»، وباستثنائه خيّم الهدوء على المنطقة. وقد بدأ المطر بالهطول في الساعة الواحدة، ثم قابلت هنري مورشر، وهو الشرطي المسؤول عن منطقة هولند غروف، ووقفنا نتحدث معاً عند ركن شارع هنرييتا. بعد وقت قصير، في نحو الثانية أو بعدها بقليل، قررت أن أتجول قليلاً في المنطقة لأطمئن إلى أن كل شيء على ما يرام في طريق بريكستون. كان الطريق موحشاً موحلاً، ولم أقابل فيه أحداً باستثناء بعض عربات الأجرة التي مرّت في الشارع.

سكت لوهلة كأنما يتخيل الصورة في ذهنه ثم مضى

قائلاً: كنت أسير ببطء وأنا أحلم بالحصول على شراب ساخن عندما لفت نظري فجأة وميضٌ يتلألأ في نافذة ذلك المنزل. كنت أعرف أنه أحد منزلَين شاغرَين في شارع لورستون، وهما غير مسكونَين لأن مالكهما يرفض توصيل المجاري إليهما، وقد مات الساكن الأخير الذي كان يقطن في أحدهما بسبب إصابته بالحمّى التيفودية. فشعرت بحيرة شديدة حين رأيت الضوء في النافذة، وشككت بخَطْب ما. وعندما وصلت إلى الباب...

قاطعه صديقي قائلاً: لقد توقفت ثم رجعت بعد ذلك إلى بوابة الحديقة. لماذا فعلت ذلك؟

انتفض رانس بعنف وحدّق إلى شيرلوك هولمز والذهول باد على ملامحه. قال: عجباً! هذا صحيح يا سيدي، مع أن الله وحده يعلم كيف عرفتَ بما حدث. عندما وصلت إلى الباب كان السكون التام والوحشة المطلقة يخيّمان على المكان، مما جعلني أفكر في أن من الأفضل أن يكون معي أحد. أنا لا أخاف من الأحياء يا سيدي، ولكنني فكرت أن ذلك الرجل الذي مات بالتيفوئيد ربما عاد ليفتش عن سبب موته! أخافتني الفكرة فرجعت إلى البوابة لأرى إن كان بإمكاني رؤية ضوء مصباح مورشر، ولكني لم أجد له أثراً ولا لأي شخص آخر.

- ألم يكن في الشارع أحد؟

- في ذلك الوقت خلا الشارعُ من أي كائن حي، لم يكن فيه ولا حتى كلب شارد. فاستجمعت شجاعتي وعدت إلى

الباب ودفعته لأفتحه. كان الهدوء يسود المكان في الداخل، فذهبت إلى الغرفة التي كان النور مضاء فيها، فوجدت شمعة يتلألأ نورها على رف المدفأة، شمعة حمراء اللون، ورأيت على ضوئها...

- نعم، أعرف كل ما صنعتَه، فقد تجوّلت في الغرفة عدة مرات، ثم ركعت بجوار الجثة، وخرجت بعد ذلك من الغرفة فحاولت فتح باب المطبخ، ثم...

هَبَّ جون رانس واقفاً على قدميه وقد ارتسمت على وجهه أمارات الخوف وظهرَ الشك في عينيه، ثم صاح قائلاً: أين كنت مختبئاً لترى كل ذلك؟ أنت تعرف أكثر مما ينبغي بكثير.

ضحك هولمز وقدم له بطاقته قائلاً: هيا، لن تعتقلني بتهمة القتل، فلستُ من المعتدين بل أنا أحد الصيّادين. يمكنك التأكد من السيد غريغسون أو السيد ليستراد. هيا، أكمل، ما الذي فعلته بعد ذلك؟

عاد رانس إلى مقعده وما زالت الحيرة ظاهرة في وجهه، ثم قال: رجعت إلى البوابة وأطلقت صفارتي، فجاء مورشر ومعه اثنان آخران إلى المكان.

- وهل كان الشارع خالياً عندئذ؟

- حسناً، لقد كان خالياً من أي شخص ذي فائدة.

- ماذا تعني؟

تهللت ملامح الشرطي بابتسامة عريضة وقال: لقد رأيت الكثير من السكارَى في حياتي، ولكنني لم أرَ أحداً بحالة أسوأ من حالة ذلك الرجل. عندما خرجت كان عند البوابة يميل على قضبان السور ويغنّي بأعلى صوته، ولكنه لم يكن قادراً على الوقوف باعتدال، فما بالك بالمساعدة؟

سأله شيرلوك هولمز: أي نوع من الرجال كان؟



رسم جورج هَتْشِنْسون (١٨٩١) George Hutchinson (1891)

بدا على جون رانس بعض الانزعاج لتغيير مجرى الحديث وقال: كان من نوع السكارى غير المألوفين، ولولا انشغالنا بالحادثة لوجد نفسه في السجن.

قاطعه هولمز بنفاد صبر: وماذا عن ملامحه وملابسه، ألم تنتبه لها؟

- أظن أنني انتبهت لملامحه عندما اضطررت لرفعه أنا ومورشر. كان رجلاً طويلاً أحمر الوجه وكان الجزء السفلي من وجهه ملفوفاً...

قال هولمز: هذا يكفي، ماذا حلّ به؟

قال الشرطي بأسى: شُغلنا بأمور أهم ولم يكن لدينا الوقت لرعايته، وأتوقع أنه عاد إلى بيته دون أن يصيبه مكروه.

- كيف كانت ملابسه؟

- كان يرتدي معطفاً داكناً.

- أكان معه سوط؟

- سوط؟ لا.

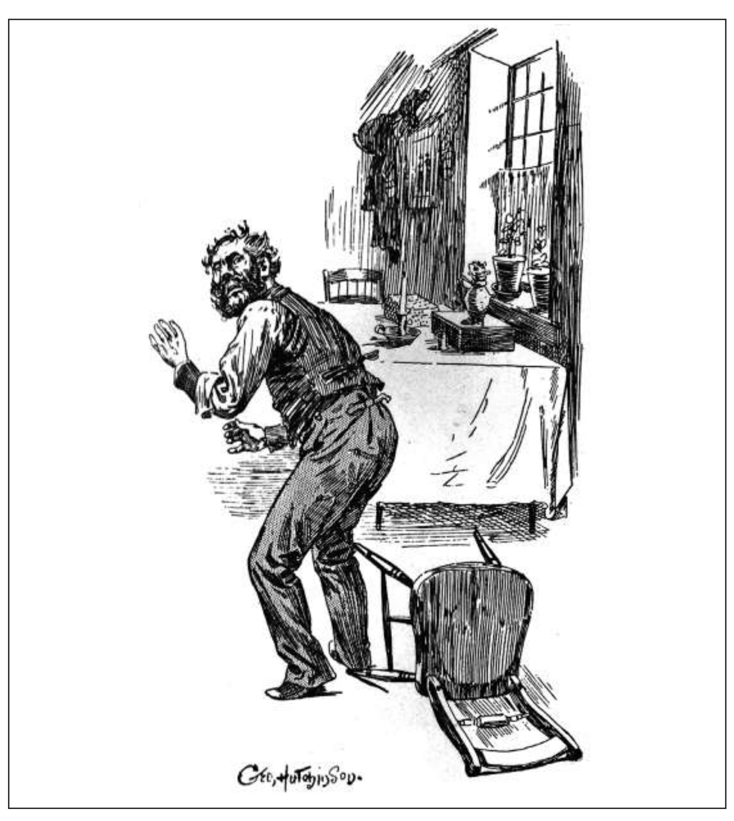
غمغم صديقي: لابد أنه تركه وراءه. ألم ترَ أو تسمع صوتَ عربة أجرة بعد ذلك؟

- لم أفعل.

قال صديقي وهو يقف ويحمل قبعته: هاك نصف جنيه، ولكن أخشى يا رانس أنك لن تترقى أبداً في الشرطة، فمن

المفروض أن تستخدم رأسك للتفكير بدلاً من مجرد حمله فوق كتفيك. كان من الممكن أن تترقى لرتبة رقيب ليلة أمس، فالرجل الذي كان بين يديك هو نفسه الرجل الذي يحمل مفتاح هذا اللغز، وهو الذي نسعى وراءه. لا فائدة من الجدال الآن، أؤكد لك أنه الرجل المطلوب. هيا بنا يا دكتور.

انطلقنا معاً متجهَين إلى العربة وقد تركنا وراءنا الرجل في حالة من عدم التصديق، ولكن من الواضح أنه كان منزعجاً.



رسم جورج هَتْشِنْسون (١٨٩١) George Hutchinson (1891)

قال هولمز بمرارة ونحن في طريقنا إلى مسكننا: ذلك الأحمق! إن مجرد التفكير بتلك الفرصة النادرة التي واتته ولم يحاول استغلالها لأمر يزعجني.

- ما زلت أشعر بالحيرة، فمع أن صفات الرجل تنطبق على الشريك الثاني في هذا اللغز إلا أنني أتساءل عن سبب عودته إلى المنزل بعد خروجه منه، فليس هذا من عادات المجرمين.

- إنه الخاتم يا رجل، الخاتم! هذا سبب عودته، ولو عجزنا عن العثور على وسيلة مناسبة للإمساك بهذا الرجل فنستطيع استخدام الخاتم طُعْماً في سبيل هذه الغاية. سأمسك به يا دكتور، أراهنك بواحد إلى اثنين أنني سأتمكن منه.

سكت قليلاً ثم مضى قائلاً: يجب عليّ أن أشكرك لأنني ما كنت سأذهب لولاك، وعندها كنت سأفوّت على نفسي أروع دراسة حظيت بها على الإطلاق. إنها دراسة قِرْمِزيّة، هل تفهم ما أعنيه؟ سأستخدم بعض البلاغة اللغوية فأشبّه جريمة القتل بخيط قِرمِزيّ اللون، بلون الدم القاني، يسري عبر خيوط الحياة الملتفّة المتشابكة، خيوط كثيرة ليس لها لون، ومن واجبنا أن نفكّكها ونعزله ثم نستكشف كل بوصة فيه. والآن هيا بنا نتناول الغداء ثم نذهب لسماع عزف نورمان نيرودا.

* * *

الفصل الخامس
زائر يستجيب للإعلان

كان الجهد الذي بذلناه طوال الفترة الصباحية أكبر من أن تتحمله صحتي الضعيفة، فكنت بعد الظهر مرهقاً تماماً، وعندما ذهب هولمز لحضور الحفل الموسيقي رقدت على الأريكة وحاولت الحصول على قدر من النوم. ولكنها كانت محاولة عقيمة لأن عقلي كان مشغولاً بكل تلك الوقائع وتزاحمت في ذهني أغرب التصورات والتخمينات، حتى إنني كنت أرى وجه القتيل ذا الملامح الملتوية الذي يشبه وجه القرد في كل مرة أغلق فيها عيني. وكان تأثير ذلك الوجه سيئاً لدرجة الشعور بالامتنان لمن أزاح صاحبه عن وجه الأرض. فلو صوّرَت الملامحُ البشرية الفسادَ في أخبث صوره لكانت تلك هي ملامح الرجل القتيل. ومع ذلك فأنا أدرك أهمية إقرار العدالة، وإن فساد أخلاق الضحية ليس مبرراً للصفح عن القاتل في نظر القانون.

كلما فكرت في الأمر بدت نظرية رفيقي في موت الرجل بالسم فكرة بارعة، وتذكرت كيف شمّ رائحة شفتَي القتيل، فلم يبقَ عندي شك أنه لاحظ شيئاً أوحى له بتلك الفكرة. ثم

إن لم يكن السم هو ما قتله فما الذي تسبب في موته، ولا أثرَ لجرح ولا لعلامة تدل على الخنق؟ ولكن إذا كان الأمر كذلك فلِمَن كان الدم الذي لوّث أرض الغرفة؟ لم نرَ أي أثر لعراك ولم يكن مع الضحية أي سلاح يمكن أن يكون قد استخدمه ضد عدوّه. طالما بقيَت تلك الأسئلة بلا أجوبة فلن يكون النوم سهلاً، لا لي ولا لهولمز. وقد أقنعتني تصرفاته الواثقة الهادئة بأنه وصل بالفعل إلى نظرية تفسّر كل تلك الوقائع، ولكني لم أستطع تخمينها.

تأخر هولمز كثيراً في العودة فعرفت أن الحفلة الموسيقية ليست هي سبب تأخيره كل هذا الوقت، وكان العشاء جاهزاً على المائدة قبل حضوره.

قال وهو يجلس على كرسيه: كانت الحفلة رائعة... آه، ما الأمر؟ لا تبدو بخير. هل أزعجتك قضية طريق بريكستون؟

قلت: في الحقيقة هذا ما حدث. ينبغي أن أكون أكثر صلابة بعد التجارب التي مررت بها في أفغانستان، فقد رأيت زملائي يتحولون إلى أشلاء في معركة مايواند دون أن أفقد أعصابي.

- أستطيع أن أفهم السبب، ففي هذه القضية لغز يحفز المخيلة، وحين لا يكون للخيال مجال لا يوجد مكان للخوف. هل اطلعتَ على صحف المساء؟

- لا.

- لقد وصفَت القضية بشكل ممتاز، ولكنها لم تُشِر إلى

خاتم المرأة الذي وقع على الأرض عندما رُفعت جثة الرجل. حسنٌ أنها لم تفعل.

- لماذا؟

أجاب: انظر إلى هذا الإعلان، لقد أرسلت نسخة منه لكل الصحف صباحاً بعد عثورنا على الخاتم مباشرة.

مدّ يده بالصحيفة عبر المائدة، ونظرت إلى المكان الذي أشار إليه. كان الإعلان الأول في عمود المفقودات والموجودات، وهذا نَصّه: "خاتم زواج ذهبي عُثر عليه في الطريق بين وايت هارت تافيرن وهولند غروف. على من يطالب به التقدّم إلى الدكتور واطسون، ٢٢١ب، شارع بيكر، بين الساعة الثامنة والتاسعة مساء".

قال: عذراً لاستخدامي اسمك، فلو استخدمت اسمي قد يلاحظه شرطي أحمق فيتدخل في المسألة.

قلت: لا بأس. ولكن ماذا لو تقدم أحدٌ للمطالبة به وهو ليس معي؟

قال وهو يعطيني خاتماً: آه، نعم، معك واحد. هذا الخاتم يفي بالغرض تماماً، وهو يكاد يكون نسخة طبق الأصل من الخاتم المقصود.

- ومن يكون الشخص الذي تتوقع أن يهتم بالإعلان؟

- أتوقع أن يكون صديقنا ذا المعطف البنّي والوجه المتورد، صاحب الحذاء ذي المقدمة المضلّعة. وحتى لو لم

يأتِنا بنفسه فسوف يرسل شريكاً له.

- ألا تظن أنه سيرى في ذلك خطورة كبيرة؟

- لا أظن؛ إذا كان تفسيري للقضية صحيحاً فقد يخاطر ذلك الرجل بأي شيء في سبيل استعادة الخاتم. حسب تصوري فإنه أوقع الخاتم بينما كان يميل على جثة دريبر، ولكنه لم يشعر بفَقده في ذلك الوقت، وبعد مغادرة المنزل اكتشف أنه فقده، فرجع مسرعاً ليجد أن الشرطة سيطروا على المكان بسبب حماقته بترك الشمعة مضاءة، فتظاهر بأنه واحد من السُّكارى لكي يُبعد الشك الذي قد يُولّده ظهوره عند البوابة. والآن ضع نفسك مكان ذلك الرجل: حين يعيد التفكير بالأمر قد يخطر بباله أن الخاتم ربما فُقِدَ في الطريق بعد مغادرة المنزل، فما الذي يمكن أن يفعله عندها؟ لا بد أنه سيبحث في صحف المساء بلهفة أملاً في العثور عليه بين الأشياء التي يُعثَر عليها في الطريق، وسوف تقع عينه على هذا الإعلان فتغمره الفرحة، فما الذي يدعوه إلى الخوف من فَخّ؟ من وجهة نظره لا يوجد سبب للربط بين العثور على الخاتم وجريمة القتل. سوف يأتي، وستراه خلال ساعة من الآن.

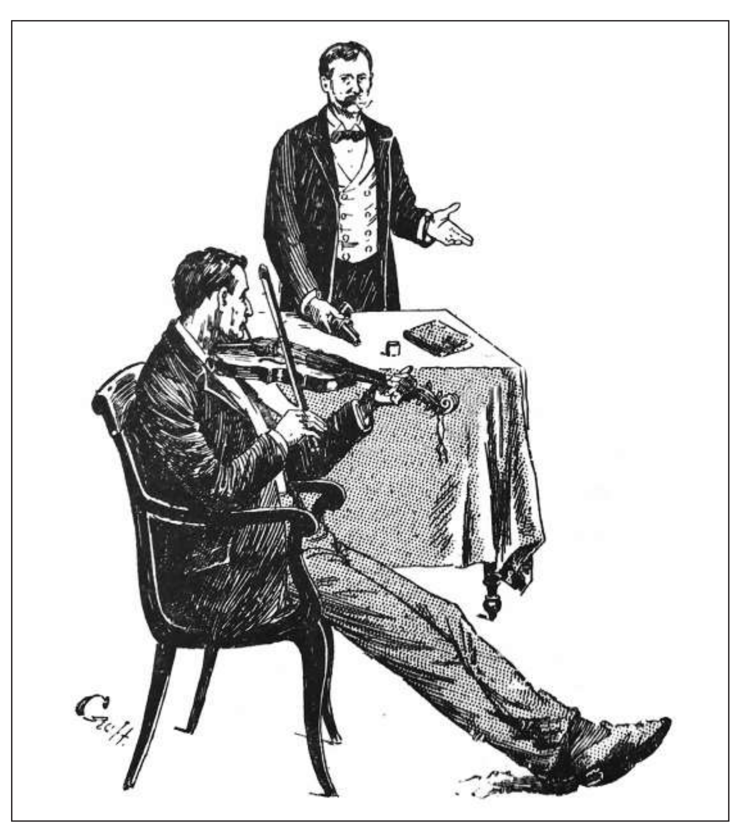
سألته قائلاً: وماذا بعد ذلك؟

- عندها يمكنك أن تترك لي مهمة التعامل معه. هل تحمل أي أسلحة؟

- عندي مسدس خدمتي السابقة في الجيش وبعض الخراطيش.

- من الأفضل أن تنظفه وتحشوه بالرصاص، فسوف يكون صاحبنا في موقف يائس. ورغم اعتقادي أنني سأفاجئه إلا أن من الأفضل أن نكون مستعدين لأي احتمال.

ذهبت إلى غرفة نومي واتبعت نصيحته، وحين عدت بالمسدس كانت الطاولة قد نُظفت تماماً وكان هولمز منشغلاً بعمله المفضل في اللعب على أوتار كمانه بشكل غير منتظم. قال عند دخولي: تعقّدت القصة، فقد تلقيت للتوّ رداً على



رسم جورج هَتْشِنْسون (١٨٩١) George Hutchinson (1891)

برقيتي التي أرسلتها إلى مركز البريد الأمريكي. إن رؤيتي للقضية هي الرؤية الصحيحة.

سألته بلهفة: وما هي؟

قال: إنني أفكر بتغيير أوتار كماني. حسناً، ضع مسدسك في جيبك، وحين يأتي الرجل تحدث إليه بطريقة عادية واترك الباقي لي، ولا تنظر إليه بإمعان كي لا يخاف.

قلت وأنا أنظر إلى ساعتي: إن الساعة الآن هي الثامنة.

- نعم، سيكون هنا على الأرجح خلال دقائق. أغلق الباب نصف إغلاق، يكفي هذا، والآن ضع المفتاح في الداخل. شكراً لك. أترى هذا الكتاب القديم الغريب الذي اشتريته من أحد المحلات الصغيرة بالأمس؟ اسمه «الحقوق بين الدول» وقد نُشر باللاتينية في لييجْ ببلجيكا سنة ١٦٤٢. كان رأس تشارلز ما يزال سليماً فوق كتفَيه حين صودرت هذه النسخة ذات الغلاف البنّي... آه، أظن أن رجلنا قد وصل.

رنّ الجرس بحدّة وهو يتحدث، فنهض شيرلوك هولمز بخفّة وحرك كرسيه نحو الباب، وسمعنا صوت الخادمة وهي تمشي عبر الصالة وصوت قرقعة سقّاطة الباب حين فتحته. ثم سأل صوتٌ واضح لا يخلو من خشونة: هل الدكتور واطسون يعيش هنا؟

لم نسمع الرد، ولكن الباب أُغلق وبدأ أحدهم بصعود الدرج. كان وقع الأقدام غيرَ منتظم ويوحي بأن صاحبه يجرّ

قدميه. ظهرت الدهشة على وجه رفيقي وهو ينصت إليها، وقد سارت ببطء عبر الرواق ثم سمعنا قرعاً ضعيفاً على الباب.

صحت قائلاً: ادخل.

عند سماع دعوتي دخلت إلى الغرفة امرأة عجوز تعرج بدلاً من الرجل العنيف الذي توقعنا دخوله، وبدا أن الضوء القوي المفاجئ قد بهر نظرها. بعد إلقاء التحية وقفت ترمش بعينيها المشوّشتين تبحث في حقيبتها بأصابع متوترة مهتزة. ألقيت نظرة سريعة على رفيقي فوجدت أن وجهه اكتسى بتعبير مهموم، فبذلت جهدي كي أحتفظ بهدوئي.

أخرجت العجوز صحيفة المساء وأشارت إلى إعلاننا قائلة: هذا هو سبب حضوري أيها السيدان المحترمان. ثم قدمت تحية أخرى برأسها وقالت: خاتم زواج ذهبي في طريق بريكستون. إنه يخص ابنتي سالي التي تزوجت في مثل هذا الوقت قبل عام. زوجها بحّار في إحدى السفن التجارية، ولا أستطيع تخيّل ما سيقوله لو عاد إلى المنزل ووجدها دون خاتم الزواج. إن كلامه جارح أصلاً وهو في أفضل حالاته، وأسوأ بكثير حين يعاقر الخمر. إذا أردت أن تعرف فقد ذهبت بالأمس إلى الميدان مع...

سألتها قائلاً: أهذا هو الخاتم؟

صاحت السيدة العجوز قائلة: شكراً لله، ستفرح سالي هذه الليلة. هذا هو الخاتم.

سألتها وأنا أمسك بالقلم: وما هو عنوانك؟

- المنزل رقم ١٣ بشارع دانكن، هاونْدْسدِتْش. إن الطريق إليه من هنا مرهق حقاً.

قال شيرلوك هولمز بحدّة: ولكن طريق بريكستون ليس قريباً من هاونْدْسدِتْش.

التفتت السيدة العجوز فنظرت إليه بحدّة بعينيها الصغيرتين وقالت: لقد سألني السيد عن عنواني أنا، أما سالي فتسكن في مسكن بالمبنى رقم ٣ في ميفيلد بليس، بيكهام.

- وما اسمك؟

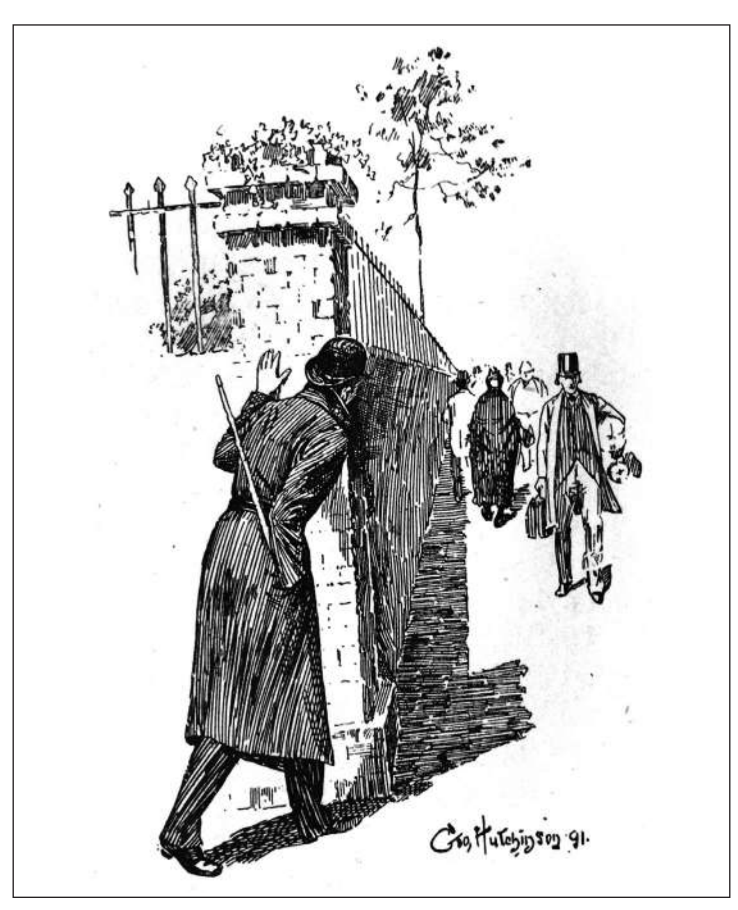
- اسمي هو سوير، أما لقبها هي فإنه دينس، فهي متزوجة بتوم دينس. وهو فتى أنيق نظيف طالما هو في البحر، ولكن حين يكون على اليابسة فإنه دائماً بين النساء ومحلات الشراب...

استجبت لإشارة صامتة من رفيقي فقاطعتها قائلاً: هاك الخاتم يا سيدة سوير. من الواضح أنه يخص ابنتك، وأنا سعيد لأنني استطعت ردّه إلى صاحبه الحقيقي.

وضعت العجوز الخاتم في حقيبتها وهي تتمتم بالدعاء لنا وتؤكد امتنانها الشديد. ثم نزلت الدرج وهي تجرّ قدمها العرجاء. وفي اللحظة التي خرجت فيها هَبّ شيرلوك هولمز على قدمَيه وأسرع إلى غرفته، وعاد بعد ثوان قليلة وقد لفّ نفسه بمعطف فضفاض وقال: سأتبعها، فلا بد أنها شريكة مع المجرم وسوف تقودني إليه. لا تنَمْ حتى أعود.

لم يكد باب الردهة يُغلَق خلف زائرتنا حتى نزل هولمز الدرج، وحين نظرت من النافذة شاهدتها وهي تسير بضعف في الناحية الأخرى من الشارع، بينما تبعها مطاردها عن بعد. فكرت في نفسي: إما أن تكون نظريته كلها غير صحيحة، أو أنه سيتوصل الآن إلى قلب اللغز.

❊ ❊ ❊



رسم جورج هَتْشِنْسون (١٨٩١) George Hutchinson (1891)

حتى لو لم يطلب مني هولمز أن أسهر في انتظاره فما كنت لأنام قبل أن أسمع نتيجة مغامرته. كانت الساعة تقترب من التاسعة حين خرج، ولم تكن لديّ أدنى فكرة عن الوقت الذي قد يستغرقه، فجلست أدخن غليوني ببلادة وأنا أتصفح كتاب هنري مورغر «مشاهد من الحياة في فرنسا».

تجاوزت الساعةُ العاشرةَ وسمعت صوت خطوات الخادمة وهي في طريقها إلى غرفتها لتنام، وفي الحادية عشرة سمعت خطوات صاحبة المنزل الأكثر وقاراً وهي تمر أمام غرفتي متجهة إلى غرفتها. كانت الساعة قد قاربت الثانية عشرة حين سمعت صوت المفتاح في الباب الخارجي، وقد قرأت في وجه هولمز لحظة دخوله أن مهمته لم تكن ناجحة. بدا وكأن مشاعر التسلية والانزعاج تتنافسان، حتى تغلبت الأولى على الثانية فانفجر فجأة في الضحك الشديد.

قال وهو يرتمي على مقعده: لا أريد لأصدقائي في الشرطة أن يعرفوا بالأمر بأي ثمن، فقد سخرت منهم كثيراً ولذا فلن يتوانوا في انتهاز هذه الفرصة للثأر!

سألته قائلاً: ماذا حصل؟

قال: حسناً، لن أمانع في سرد قصة ليست في صالحي. سارت تلك المرأة مسافة قصيرة ثم بدأت بالترنّح وإظهار كل علامات تعب القدمين، فتوقفت وأشارت لعربة ذات أربع عجلات كانت تمرّ في الطريق. استطعت الاقتراب منها لأسمع العنوان، ولكن لم تكن كل تلك اللهفة ضرورية لأنها

صدحت به بصوت عال بما فيه الكفاية ليُسمَع من الجهة الأخرى للشارع. صاحت قائلة: انطلق إلى المنزل رقم ١٣ بشارع دانكن في هاوندسدتش.

فكرت أن الأمر يبدو وكأنه حقيقي، وحين اطمأننت إلى أنها دخلت العربة تعلقت بها من خلفها (وهو فن ينبغي لكل محقق أن يتقنه). حسناً، انطلقنا في طريقنا، ولم تهدئ العربة سرعتها حتى وصلنا إلى الشارع المطلوب، فقفزت قبل أن نصل إلى باب المنزل ورحت أمشي في الشارع بخطى هادئة متسكعة. رأيت العربة تتوقف والسائق يقفز منها، ورأيته يفتح الباب ويقف منتظراً، إلا أن أحداً لم يخرج! وحين وصلت إليه رأيته يفتش العربة الفارغة كالمسعور، وراح ينفّس عن غضبه بمجموعة متنوعة من أفضل الشتائم التي سمعت بها في حياتي.

لم يكن في العربة أثر لأي راكب، وأخشى أنه لن يُحصل أجرته أبداً، فعندما تحرّينا عن المنزل رقم ١٣ وجدنا أنه يخصّ أحد المقاولين المحترمين واسمه كيسويك، وهم لا يعرفون أحداً باسم سوير أو دينس.

صحت قائلاً بذهول: لا يمكن أن تعني أن تلك المرأة المترنحة الضعيفة نجحت في الخروج من العربة المنطلقة بأقصى سرعتها دون أن تلاحظها أنت أو السائق؟

قال هولمز بحدّة: تبّاً للمرأة العجوز! لقد كنا نحن العجَزةَ لأننا خُدعنا بتلك الطريقة المهينة! لا بد أنه كان شاباً، بل وشاباً قوياً أيضاً، بالإضافة إلى قدرته الفريدة على التمثيل. فقد

رأى أن أحداً يتبعه بلا شك، فاستخدم هذه الوسيلة للإفلات مني. وهذا يدل على أن الرجل الذي نسعى خلفه ليس وحيداً كما كنت أظن، بل لديه أصدقاء على استعداد للمخاطرة من أجله. والآن يا دكتور: يبدو عليك الإرهاق الشديد، فخذ بنصيحتي واخلد إلى النوم.

كنت أشعر بالإرهاق الشديد بالتأكيد، فاتبعت نصيحته. تركته جالساً أمام المدفأة، وفي هدأة الليل سمعت النحيب الكئيب لكمانه، فعرفت أنه ما زال يتأمل في المشكلة الغريبة التي صمّم على حلها.



الفصل السادس

غريغسون يستعرض قدراته

امتلأت صحف اليوم التالي بأخبار عن «لغز بريكستون» كما سُمّي، وسردَت وصفاً مطولاً للأحداث، وقد تناولتها بعض الصحف في مقالتها الافتتاحية أيضاً، واحتوت على بعض المعلومات التي كانت جديدة بالنسبة لي. ما زلت أحتفظ في سجلاتي بعدد من القصاصات والمقاطع ذات الصلة بالقضية. وفيما يلي تلخيص لها.

جاء في «الديلي تلغراف» أنه نادراً ما كان في تاريخ الجريمة مأساة تحمل سمات أغرب مما تقدمه هذه الجريمة. فالاسم الألماني للضحية وغياب كل الدوافع الأخرى والكتابة الحاقدة على الجدار أشارت كلها إلى أن مرتكب الجريمة هو أحد اللاجئين أو الثوار السياسيين. فالاشتراكيون لهم فروع كثيرة في أمريكا، ولعلّ القتيل انتهك أحد قوانينهم غير المكتوبة فتتبعوه. وبعد التلميح لبعض الجماعات السرية وبحث بعض النظريات واستعراض بعض الجرائم الشهيرة انتهت المقالة إلى تحذير الحكومة وتأييد فرض رقابة أكثر إحكاماً على الأجانب في إنكلترا.

أما جريدة «ستاندرد» فعلقت على أن الانتهاكات غير القانونية من هذا النوع عادة ما تحدث في ظل الإدارة المتحررة، فهي نتيجة حتمية لاضطراب عقول الجماهير وضعف السلطة. فالقتيل كان سيداً أمريكياً مكث في لندن لبضعة أسابيع، وكان يقيم في نُزُل صغير تملكه السيدة تشاربنتر، في شارع توركاي تِراس في كامبرويل. وكان سكرتيره السيد جوزف ستانغرسون يرافقه في رحلاته. وقد ودّع الاثنان صاحبة النزُل يوم الثلاثاء الذي يوافق اليوم الرابع من الشهر الجاري، واتجها إلى محطة إيستون وفي نيتهما اللحاق بقطار ليفربول السريع، وشوهدا معاً بعد ذلك على رصيف المحطة، ثم لم يُسمَع عنهما أي خبر حتى عُثر على جثة السيد دريبر في منزل مهجور في طريق بريكستون على بعد أميال من إيستون. فكيف وصل هناك وكيف لقي حتفه؟ ما يزال الغموض يغلف تلك الأسئلة. أما السيد ستانغرسون فلا أحد يعرف شيئاً عن مكانه. وقد علمنا أن السيد ليستراد والسيد غريغسون كُلِّفا بالتحقيق في القضية، ومن المتوقع أن ينجح هذان المحققان الشهيران في حل اللغز سريعاً.

وعلقت «الديلي نيوز» على القضية قائلة إنه لا شك في أنها قضية سياسية، فالحكم المطلق وكراهية الليبرالية كان لها أثرها في اجتذاب عدد من الأمريكيين إلى أوروبا، وكان من الممكن أن يتحولوا إلى مواطنين مثاليين لولا أنهم ارتبطوا بقوانين شرف صارمة يُعاقَب كل من يخالفها بالموت. يجب بذل كل الجهود للعثور على السكرتير ستانغرسون والتحقق

من بعض التفاصيل عن عادات القتيل، وقد كانت معرفة عنوان النزُل الذي أقام فيه القتيل خطوة كبيرة إلى الأمام، وهو جهد يرجع كلياً إلى دقة ونشاط السيد غريغسون من الشرطة البريطانية.

قرأت أنا وشيرلوك هولمز هذه المقالات معاً عند الإفطار، وبدا أنها تقدم له قدراً كبيراً من التسلية. قال: لقد أخبرتك أن ليستراد وغريغسون سيكسبان مهما حدث.

- الأمر يتوقف على النتيجة.

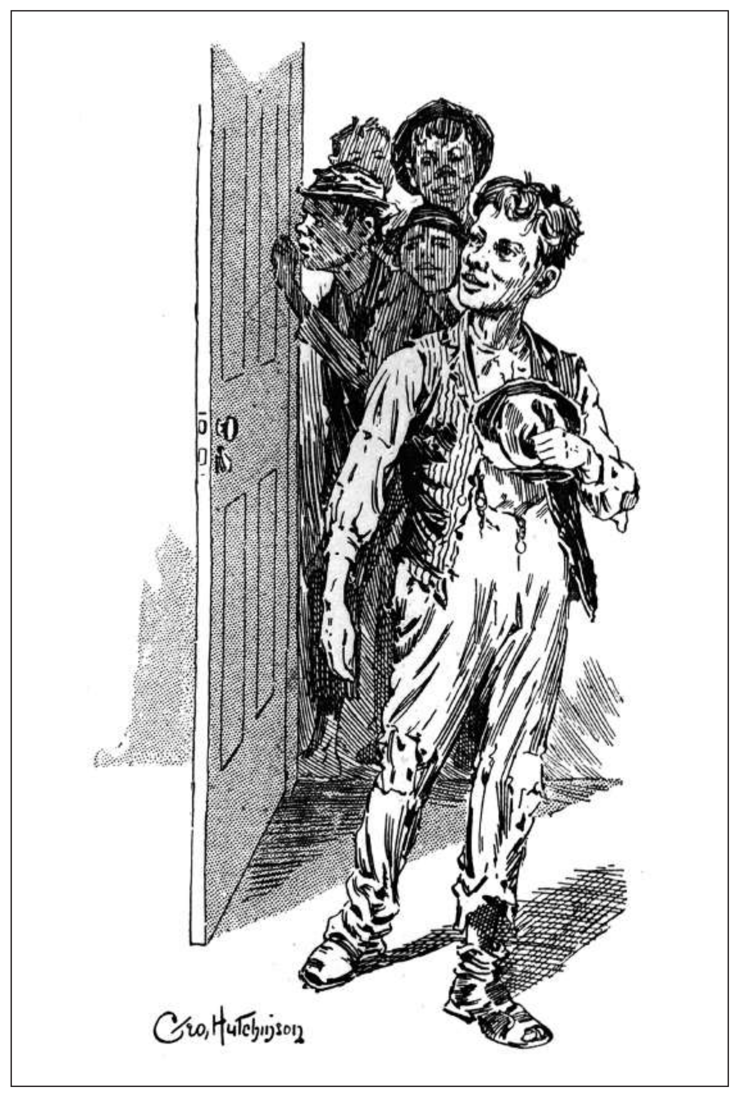
- آه، باركك الله! ليس للنتيجة أي أهمية على الإطلاق، فلو قُبض على الرجل سيرجع الفضل إلى جهودهما، أما إذا هرب فسيكون هروبه برغم كل الجهود التي بذلاها. إنهما يكسبان مهما كانت النتيجة، ومهما فعلا سيجدان من يؤيدهما، فكما جاء في الأمثال: "الأحمق يجد دائماً مَن هو أكثر منه حماقة ليُعجَب به".

صحت قائلاً: ما هذا؟!

في تلك اللحظة سمعنا صوت خطوات كثيرة على الأرض في القاعة ثم على الدرَج، مصحوبة بعبارات اشمئزاز واضحة من طرف صاحبة المنزل. قال رفيقي بابتسامة: إنها مجموعة محقّقي شارع بيكر!

في تلك اللحظة اندفع إلى الغرفة ستة من أقذر مَن وقعت عليهم عيني من المشردين وأكثرهم بؤساً. صاح هولمز قائلاً

بنبرة حادة: انتباه! فوقف الصغار الستة صفاً واحداً كما لو كانوا تماثيل صغيرة!



رسم جورج هَتْشِنْسون (١٨٩١)

George Hutchinson (1891)

قال: في المستقبل عليكم إرسال ويغينز وحده ليقدم تقريره، وعلى الآخرين الانتظار في الشارع. هل عثرتم عليه يا ويغينز؟

أجاب أحد الصبية: لا يا سيدي، لم نعثر عليه.

- يجب أن تستمروا بالبحث حتى تجدوه. ها هي مكافأتكم.

أعطى كل واحد منهم شلناً وقال: والآن اذهبوا، وعودوا بتقرير أفضل في المرة المقبلة. ثم لوّح بيده فأسرعوا بنزول الدرج كمجموعة من الفئران، وبعد لحظة سمعنا أصواتهم العالية في الشارع.

قال هولمز: يمكن لواحد من هؤلاء المتسوّلين الصغار أن ينجز من العمل ما لا يقدر عليه اثنا عشر رجلاً من رجال الشرطة، فمجرد رؤية زيّ الشرطة الرسمي يمنع الناس من الكلام، أما هؤلاء فيذهبون إلى كل مكان ويسمعون كل شيء، كما أنهم أذكياء أيضاً ولا ينقصهم إلا التنظيم.

سألته قائلاً: وهل استخدمتهم ليساعدوك في قضية شارع بريكستون؟

- نعم، لأنني أردت التأكد من بعض الأمور. إنها مسألة وقت فقط. عجباً! سنسمع الآن بعض الأخبار، فها هو غريغسون قادم والغبطة مرتسمة على وجهه، وأنا أعرف أنه في طريقه إلينا. نعم، لقد توقف، وها هو يتجه إلى بابنا.

دوّى الجرس بعنف، وبعد لحظات اندفع المحقق الأشقر إلى غرفة جلوسنا وصاح وهو يضغط على يد هولمز المتراخية: صديقي العزيز، هنّئني! لقد كشفت أسرار القضية كلها وأصبحَت واضحة كضوء النهار.

بدا لي أن سحابة من القلق غطّت على ملامح صديقي المعبرة للحظة، وسأل قائلاً: هل تعني أنك على الطريق الصحيح؟

- الطريق الصحيح! بل لقد قبضنا على الرجل وحبسناه.

- وما اسمه؟

صاح غريغسون وهو يفرك يديه وينفخ صدره بغرور: إنه آرثر تشاربنتر، وهو ملازم أول احتياطي في الأسطول الملكي.

أطلق هولمز زفرة ارتياح واسترخى مبتسماً، ثم قال: اجلس وجرب هذا السيغار، فنحن متشوقان لسماع قصتك.

أجاب المحقق: هذا مناسب تماماً، فالجهد الهائل الذي بذلته خلال اليومين الماضيين أرهقني للغاية. لا أعني الإرهاق الجسدي بقدر ما أقصد الإرهاق العقلي. تستطيع فهم ذلك -يا سيد هولمز- لأن كلاً منا يعتمد على قدراته العقلية في العمل.

قال صديقي بوقار: إنك تتكرم عليّ بشرف كبير! دعنا نسمع كيف توصلت إلى هذه النتيجة المُرْضية.

جلس المحقق على كرسي ذي ذراعين وأخذ يدخّن

سيغاره بزهو، ثم ضرب بيده على فخذه في نوبة سرور مفاجئة وصاح قائلاً: من المضحك أن ذلك الأحمق ليستراد (الذي يظن نفسه في غاية الذكاء) خرج تماماً عن المسار الصحيح، فهو يبحث عن السكرتير ستانغرسون الذي ليست له أي علاقة بجريمة القتل. ولعله قبض عليه الآن.

أبهجت الفكرة غريغسون كثيراً فأخذ يضحك حتى كاد يختنق، وسأله هولمز: كيف حصلت على دليلك؟

- سأخبرك بتفاصيل الأمر بالتأكيد، ولكن أرجو أن يبقى الأمر سراً بيننا يا دكتور واطسون. الصعوبة الأولى التي كان عليّ تخطيها هي معرفة ماضي ذلك الأمريكي، ولو أن أحداً آخر تولى القضية لانتظر حتى يأتيه الرد على الإعلان في الصحف أو حتى يتقدم أحد الأطراف ويدلي بالمعلومات، ولكن ليست هذه طريقة توبياس غريغسون في العمل. هل تذكر القبعة التي وجدناها بالقرب من القتيل؟

قال هولمز: نعم، وهي من صنع جون أندَرْوُد وأبنائه، ١٢٩ طريق كامبرويل.

بدت خيبة الأمل على غريغسون وقال بفتور: لم أعرف أنك لاحظت ذلك. وهل ذهبت إلى هناك؟

- لا.

صاح غريغسون بصوت مرتاح: ها! يجب أن تنتهز أي فرصة مهما بدت صغيرة.

قال هولمز بحكمة: إن العقول الكبيرة تستطيع استخلاص الكثير من الأشياء الصغيرة.

- جيد. ذهبتُ إلى أندَرْوُد وسألته عمّا إذا كان قد باع قبعة بذلك المقاس والوصف، فنظر في دفاتره وعثر عليه على الفور. لقد أرسل القبعة إلى السيد دريبر المقيم في نُزُل تشاربنتر بشارع توركاي تراس. وهكذا حصلت على عنوانه.

غمغم شيرلوك هولمز قائلاً: ذكي، ذكي جداً.

- بعد ذلك زرت السيدة تشاربنتر فوجدتها حزينة وشاحبة جداً، وكانت معها في الغرفة ابنتها أيضاً. وهي فتاة ذات جمال نادر، وكانت عيناها حمراوين وأخذت شفتاها ترتعشان بينما كنت أتحدث إليها. لم تَفُتْني ملاحظة هذه المظاهر وشعرت بأمر مريب. أنت تعرف هذا الشعور يا سيد هولمز، عندما تصل إلى الأثر الصحيح فتشعر برعشة في عروقك. فسألتها: هل سمعت بموت النزيل السابق السيد إينوش دريبر من كليفلاند؟

أومأت الأم، فقد بدا أنها غير قادرة حتى على النطق بكلمة واحدة، أما الابنة فانفجرت في البكاء، فزاد إحساسي بأن هاتين المرأتين تعلمان شيئاً عن القضية.

سألت قائلاً: في أي ساعة غادر السيد دريبر هذا المكان ليلحق بالقطار؟

قالت وهي تزدرد لعابها لتقلل من انفعالها: في الساعة الثامنة، وقد تحدث سكرتيره السيد ستانغرسون عن قطارين،

قطار ينطلق في التاسعة والربع والآخر في الحادية عشرة، وقال إنهما سيركبان الأول.

- وهل كانت تلك آخر مرة رأيتماه فيها؟

تغير وجه المرأة بشكل فظيع عندما طرحت هذا السؤال وشحبت ملامحها تماماً، ومرّت بضع ثوان قبل أن تتمكن من النطق بكلمة واحدة، قالت: نعم!

قالتها بنبرة متحشرجة غير طبيعية، وساد الصمت للحظة، ثم تحدثت الابنة بصوت واضح هادئ، قالت: لا يأتي الكذب بأي خير أبداً يا أمي. دعينا نتحدث بصراحة مع هذا السيد، فقد رأينا السيد دريبر ثانية.

صاحت السيدة تشاربنتر وهي تلوّح بذراعيها إلى الأعلى وتعود لتجلس في كرسيها: فليغفر لك الله، لقد قتلتِ أخاك!

أجابت الفتاة بحزم: آرثر سيفضّل أن نقول الحقيقة.

قلت: الأفضل أن تخبريني بكل شيء الآن، فإنّ نصف الحقيقة أسوأ من الصمت. هذا بالإضافة إلى أنك لا تعرفين مقدار ما نعلم.

صاحت أمها قائلة: أنت المسؤولة عن هذا يا آليس! ثم التفتت نحوي وقالت: سأخبرك بكل شيء يا سيدي، وأرجو أن لا تتصور أن قلقي على ابني ينبع من خوفي أن تكون له علاقة بهذه القضية البشعة. إنه بريء منها تماماً، وإنما أنا خائفة أن يبدو لك ولغيرك موضعَ شبهة. وهذا على كل حال مستحيل

بالتأكيد، فطباعه النبيلة ووظيفته تمنعه من الإقدام على أي عمل قبيح.

أجبتها قائلاً: إن أفضل سبيل أمامك هو الاعتراف الكامل بكل ما وقع، وبناء على كلامك فلو أن ابنك كان بريئاً فلن يصيبه أحد بسوء.

قالت: الأفضل أن تتركينا معاً يا آليس.

انسحبت ابنتها، فأكملت قائلة: لم أحب إخبارك بشيء من هذا، ولكن بما أن ابنتي الجبانة فضحت الأمر فليس أمامي خيار آخر، وطالما قررتُ الكلام فسوف أخبرك بكل شيء دون إغفال أية تفاصيل.

قلت: سيكون هذا أسلم السبُل.

قالت: لقد أمضى السيد دريبر معنا نحو ثلاثة أسابيع، فهو وسكرتيره السيد ستانغرسون يسافران عبر القارة الأوروبية، وقد لاحظت ملصق باسم «كوبنهاغن» على كل حقائبهما، مما يُظهر أنها كانت آخر مكان ذهبا إليه. كان ستانغرسون رجلاً هادئاً متحفظاً، أما رب عمله (وأنا آسفة لما سأقول) فكان على النقيض تماماً، كان فَظّ الطباع همجيّ التصرفات. في أول ليلة وصل فيها ساء طبعه كثيراً بسبب الشراب، وفي الحقيقة فإن من النادر أن تجده واعياً بعد الظهر! وقد كانت تصرفاته مع الخادمات متحررة بشكل مقزز، والأسوأ من ذلك أنه سريعاً ما اتبع نفس الأسلوب مع ابنتي آليس، فتحدث إليها في أكثر

من مناسبة بطريقة لم تتمكن لحسن الحظ من فهمها بسبب براءتها. وفي إحدى المرات احتجزها بين ذراعيه وعانقها بطريقة وحشية جعلت سكرتيره يعاتبه على تصرفه الحقير.

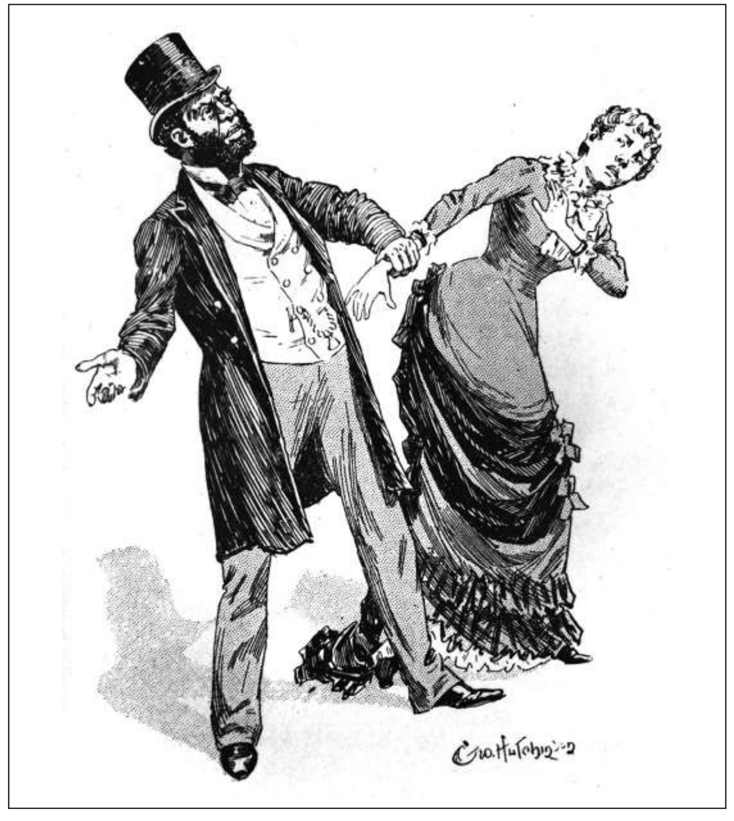
سألتها: ولكن لماذا تحملتِ كل هذا؟ ألستِ قادرة على التخلص من المستأجرين حين تريدين؟

احمرّ وجه السيدة تشاربنتر عندما طرحت عليها هذا السؤال وقالت: ليتني طردته منذ اليوم الأول! ولكن إغراء المال كان قوياً، فقد كان كل واحد منهما يدفع جنيهاً في اليوم، أي أربعة عشر جنيهاً لهما معاً في الأسبوع. وفي هذا الوقت من السنة يكون العمل خفيفاً، وأنا أرملة وقد كلفني ابني الكثير لأدخله البحرية، فكرهت خسارة المال. لقد تصرفت بما فيه المصلحة، ولكن ما صنعه أخيراً فاق قدرتي على الاحتمال فطلبت منه مغادرة النزُل... هذا هو سبب رحيله.

- وبعد؟

- زال الهمّ عن قلبي حين رأيته يرحل، ومع أن ابني يقضي إجازته معنا هنا الآن إلا أنني لم أخبره بشيء من ذلك كله لأنه عصبيّ المزاج ويحب شقيقته كثيراً. حين أغلقت الباب إثر رحيلهما شعرت وكأن عبئاً انزاح عن كاهلي، ولكن للأسف، سمعنا رنين الجرس بعد أقل من ساعة فعرفت أن السيد دريبر عاد. كان في حالة هياج ومن الواضح أنه كان مخموراً، فقد اندفع إلى الغرفة عنوة حيث كنت أجلس أنا وابنتي وذكر بشكل غير مترابط أنه لم يلحق بالقطار، ثم التفت

بعد ذلك باتجاه آليس وعرض عليها أن تهرب معه! قال: لقد بلغتِ سنّ الرشد والقانون لا يمنعك من ذلك، وأنا أملك من المال ما يكفي ويَفيض، فلا تُلقي بالاً لأمك، بل تعالي معي الآن على الفور وسوف تعيشين كالأميرة! خافت آليس المسكينة جداً لدرجة أنها ابتعدت عنه، فقبض على معصمها وحاول سحبها ناحية الباب، فصرختُ، وفي تلك اللحظة جاء ابني آرثر إلى الغرفة. لا أعرف ما حدث بعد ذلك، فقد سمعت



رسم جورج هَتْشِنْسون (١٨٩١) George Hutchinson (1891)

وعيداً وأصوات عراك متداخلة، وكنت خائفة فلم أستطع رفع رأسي، وحينما رفعته أخيراً رأيت آرثر يقف في مدخل الغرفة وهو يضحك وفي يده عصا، ثم قال: لا أظن أن هذا الشخص سيزعجنا ثانية، ولكنني سأذهب خلفه لأرى ما الذي سيفعله. بهذه الكلمات انطلق إلى الشارع بعد أن أخذ قبعته، وصباح اليوم التالي سمعنا بخبر موت السيد دريبر الغامض.

أدلت السيدة تشاربنتر بهذه الشهادة بين التنهدات وفترات الصمت، حتى إنها كانت تتكلم في بعض الأوقات بصوت منخفض جداً حتى أكاد لا أسمع الكلمات، ولكني كتبت باختصار كل ما قالته على أية حال حتى لا يقع أي خطأ.

قال شيرلوك هولمز وهو يتثاءب: إن هذا مثير جداً، وماذا حدث بعد ذلك؟

أكمل المحقق قائلاً: عندما صمتت السيدة تشاربنتر رأيت أن القضية كلها باتت معلقة بنقطة واحدة، وهكذا فقد ركزت عيني عليها بطريقة أجدها دائماً فعّالة مع النساء، وسألتها عن الساعة التي عاد فيها ابنها.

أجابت قائلة: لا أعرف.

قلت: لا تعرفين؟

- معه مفتاح للباب الخارجي، ففتح الباب بنفسه ودخل.

- بعدما نمت؟

- نعم.

- ومتى ذهبتِ إلى النوم؟

- في نحو الحادية عشرة.

- وهكذا فقد غاب ساعتين تقريباً؟

- نعم.

- وربما غاب لأربع ساعات أو خمس؟

- ربما.

- وماذا كان يفعل خلال ذلك الوقت؟

أجابت وقد شحب وجهها تماماً: لا أعرف.

بالطبع لم يبقَ الكثير لأفعله بعد هذا الكلام، فعرفت مكان الرقيب تشاربنتر ثم اصطحبت شرطيين وقبضت عليه، وعندما ربّتُّ على كتفه وطلبت منه أن يأتي معنا بهدوء ما كان منه إلا أن قال بكل جرأة: أفترضُ أنكم تقبضون عليّ لتورطي في مقتل ذلك النذل دريبر؟

ختم غريغسون قصته الطويلة قائلاً: ولم نكن قد ذكرنا له شيئاً عن الموضوع، لذلك فإنني أعتبر إشارته إليه أمراً مثيراً للشك.

قال هولمز: جداً.

أضاف غريغسون قائلاً: وكانت معه العصا التي قالت أمه إنه كان يحملها معه عندما تبع دريبر، وهي هراوة متينة من خشب البلوط.

- هذه نظريتك إذن؟

- حسناً، نظريتي هي أنه تبع دريبر حتى طريق بريكستون، وهناك نشبت بينهما مشاجرة جديدة تلقّى دريبر خلالها ضربة من العصا (ربما في معدته) فقتلته دون أن تترك أثراً. كانت الأمطار غزيرة فلم يرَهما أحد، فجَرَّ تشاربنتر جثة ضحيته إلى المنزل المهجور، أما الدم والشمعة والكتابة على الجدار والخاتم فربما تكون كلها مجرد حيل لتضليل الشرطة.

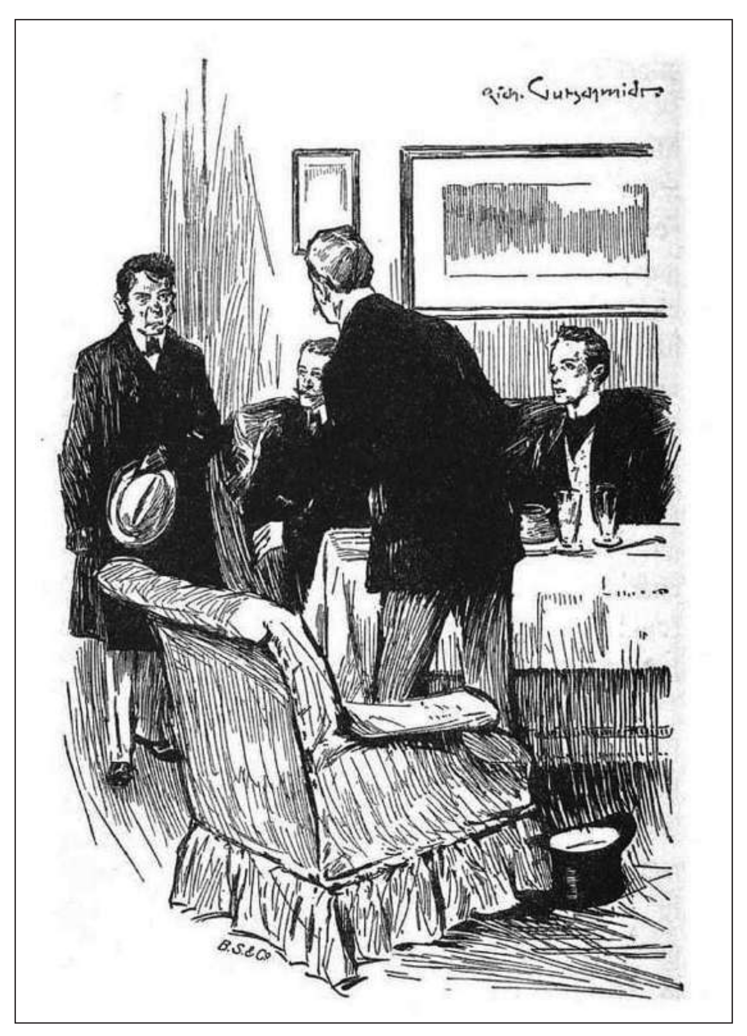
قال هولمز بصوت مشجع: أحسنت، إنك تتقدم حقاً يا غريغسون، وما زال لديك أمل في أن تصبح محققاً جيداً.

أجاب المحقق بفخر: إنني أغبط نفسي لأنني استطعت معالجة هذه القضية بمثل هذه الدقّة. وقد تطوع الشاب فأدلى باعتراف قال فيه إنه بعد أن تبع دريبر لبعض الوقت لاحظه دريبر فاستقل عربة أجرة ليهرب منه، فتركه وعاد إلى البيت، وفي طريق عودته قابل أحد زملائه من الملّاحين القدامى فسارا معاً في نزهة طويلة. وحين سُئل عن مكان إقامة زميله الملاح لم يستطع تقديم إجابة مُرْضية. أعتقد أن القضية اكتملت بشكل جيد، ويضحكني التفكير في ليستراد الذي بدأ العمل على دليل بعيد كلياً وأخشى أنه لن يصل إلى نتيجة. ولكن... عجباً، ها هو قد جاء بنفسه!

كان ليستراد حقاً هو مَن صعد الدرج أثناء حديثنا، وفي تلك اللحظة دخل الغرفةَ وقد اختفت الثقة والأناقة التي تميز عادةً سلوكه وملبسه وبدت في وجهه ملامحُ الانزعاج والكدر،

وكان من الواضح أنه جاء لاستشارة شيرلوك هولمز، حيث بدا عليه الحرج عندما وجد زميله معنا.

وقف وسط الغرفة وهو يتحسس قبعته بتوتر غيرَ واثق



رسم رتشارد غوتْشمِت (١٩٠٢) Richard Gutschmidt (1902)

مما يجب عليه فعله، ثم قال أخيراً: إن هذه القضية غريبة جداً وغير مفهومة على الإطلاق.

صاح غريغسون بلهجة منتصرة: آه، أتجدها كذلك يا سيد ليستراد؟ كنت واثقاً أنك ستصل إلى هذه النتيجة. هل استطعت العثور على السكرتير، السيد جوزف ستانغرسون؟

قال ليستراد بأسى: لقد قُتل السيد جوزف ستانغرسون في فندق هوليديز في السادسة من صباح هذا اليوم.

* * *

الفصل السابع
ضوء وسط العتمة

كان الخبر الذي بدأ به ليستراد حديثَه صاعقاً جداً وغيرَ متوقع فترك أثره فينا نحن الثلاثة، فقد هَبّ غريغسون من كرسيه بذهول، وحدقت أنا بصمت إلى شيرلوك هولمز الذي زمّ شفتيه وعقد حاجبيه، ثم غمغم قائلاً: ستانغرسون أيضاً؟ لقد تعقدت القضية!

دمدم ليستراد قائلاً وهو يجلس: لقد كانت معقدة بما يكفي من قبل! أحس وكأنني جئت دون موعد إلى ما يشبه مجلس الحرب؟

سأل غريغسون زميله بتوتّر: هل أنت... هل أنت متأكد من هذه المعلومة؟

قال ليستراد: لقد جئت لتوي من غرفته، وكنت أول من اكتشف ما حدث.

علق هولمز قائلاً: لقد سمعنا قبل قليل تصور غريغسون للقضية، فهل لك أن تخبرنا بما رأيت وسمعت؟

- لا مانع أبداً، وأنا أعترف -بلا حرج- بأنني كنت أعتقد

أن ستانغرسون كان متورطاً بمقتل دريبر، ولكن هذا التطور الأخير أثبت خطئي التام. كنت قد قررت العثور على السكرتير مدفوعاً بفكرة واحدة، فبما أنهما كانا معاً في محطة إيستون في الثامنة والنصف من مساء الثالث من هذا الشهر وفي الثانية صباحاً عُثر على دريبر في طريق بريكستون فقد كان السؤال الذي واجهته هو: ما الذي فعله ستانغرسون من الساعة الثامنة والنصف حتى وقت الجريمة؟ وما الذي حدث له بعد ذلك؟ أرسلت إلى ليفربول برقية وصفت فيها الرجل وطلبت منهم مراقبة السفن المتجهة إلى أمريكا، ثم بدأت بزيارة الفنادق القريبة من إيستون، فقد كنت مقتنعاً بأنه إن كان دريبر ورفيقه قد افترقا فمن الطبيعي أن يقضي الأخير ليلته في مكان قريب ليعود صباح اليوم التالي إلى المحطة.

قال هولمز: من المحتمَل أنهما اتفقا سلفاً على مكان اللقاء؟

- هذا هو ما تبين لاحقاً، فقد قضيت مساء الأمس كله في التحري عن الأمر دون جدوى، ثم بدأت بحثي في وقت مبكر من صباح اليوم، وفي الثامنة وصلت إلى فندق هوليديز بشارع ليتل جورج، وبسؤالهم عما إذا كان السيد ستانغرسون يقيم عندهم أجابوا على الفور بالإيجاب.

قالوا: لا شك أنك السيد الذي كان ينتظره، فقد كان في انتظار شخص ما منذ يومين.

سألت: أين هو الآن؟

- إنه نائم في غرفته بالطابق العلوي، وقد طلب إيقاظه في التاسعة.

قلت: سأصعد لمقابلته على الفور.

ظننت أن أعصابه قد تهتزّ لظهوري المفاجئ فيعترف بشيء يلقي بعض الضوء على القضية. تطوع الحمّال ليدلني على الغرفة التي كانت في الطابق الثاني، يؤدي إليها ممر صغير. دلني على الباب وكان على وشك العودة إلى الطابق الأسفل حين رأيت شيئاً أصابني بالغثيان، رغم خبرتي الطويلة التي تبلغ عشرين عاماً!

تسرب من تحت الباب شريط أحمر من الدم انساب في خط متعرج عبر الممر ليستقر مكوّناً بقعة كبيرة عند طرف الناحية الأخرى. عندما رأيته أطلقت صيحة قصيرة، فعاد الحمال الذي كاد يفقد وعيه حين رأى الدم. كان الباب محكم الإغلاق من الداخل، ولكننا دفعناه بكتفينا فخلعناه، وعندئذ وجدنا نافذة الغرفة مفتوحة وبجوارها جثة متكومة لرجل يرتدي ثياب النوم. كان ميتاً منذ بعض الوقت لأن أطرافه باردة ومتصلبة. وعندما قلبناه تعرف عليه الحمال على الفور، قال إنه هو السيد الذي شغل الغرفة باسم جوزف ستانغرسون. كان سبب الوفاة طعنة عميقة في جانبه الأيسر، ولا بد أنها اخترقت القلب. والآن نصل إلى أغرب جزء في القضية. ماذا تظنون كان فوق القتيل.

شعرت بقشعريرة تسري في بدني وتوجست خيفة حتى

قبل أن يجيب شيرلوك هولمز قائلاً: كلمة «راخِهْ» الألمانية مكتوبةً بحروف من الدم.

قال ليستراد بصوت يمتلئ بالرهبة: نعم، هذا صحيح.

* * *

خيّم علينا الصمت لدقائق. كان في أفعال هذا القاتل المجهول شيء منظم جداً ومبهم للغاية، مما يضفي على جرائمه شكلاً جديداً مرعباً، حتى إن أعصابي التي كانت قوية تماماً في ساحة القتال اهتزت حين فكرت فيها.

أكمل ليستراد: لقد شوهد القاتل! فقد سار الصبيّ الذي يُحضر الحليب صباحاً في الممر المؤدي إلى الإسطبلات خلف النزُل، فلاحظ هناك سلّماً مرفوعاً يصل إلى إحدى النوافذ المفتوحة بالطابق الثاني، وهو يكون في العادة ملقىً على الأرض. وبعد أن تجاوزه نظر إلى الخلف فرأى رجلاً يهبط عليه، ولكنه نزل علناً وبهدوء شديد فظنّ أنه نجّار يعمل في النزُل أو شيئاً من هذا القبيل. لذلك لم يهتم كثيراً لأمره، فيما عدا أنه فكر أن الوقت مبكر جداً ليبدأ الرجل عمله. وكان انطباعه عنه أنه رجل طويل أحمر الوجه يرتدي معطفاً طويلاً بنّي اللون. ويبدو أنه بقي لبعض الوقت في الغرفة، فقد وجدنا بقع دم في الحوض حيث غسل يديه، بالإضافة إلى آثار الدم على الشراشف التي نظّف فيها سكينه بعناية.

نظرت إلى هولمز عند سماعي مواصفات القاتل التي تنطبق تماماً على الوصف الذي ذكره من قبل، ولكني لم أجد

على وجهه أي أثر للرضا أو السرور.

سأل هولمز قائلاً: ألم تجد في الغرفة ما يمكن أن يصلح دليلاً على القاتل؟

- لا شيء، فمع أن محفظة دريبر كانت في جيب ستانغرسون إلا أن هذا الأمر عادي على ما يبدو، حيث إنه كان يشرف على تسديد كل النفقات. وكان في المحفظة أكثر من ثمانين جنيهاً، وإذن فإن السرقة ليست بالتأكيد من الدوافع التي كانت وراء هذه الجرائم غير العادية، أيا كانت. لم أجد في محفظة القتيل أي أوراق عدا عن برقية واحدة يعود تاريخها لنحو شهر مضى، وهي صادرة من كليفلاند وتحتوي على الكلمات التالية: «ج هـ في أوروبا»، وليس في آخرها أي اسم.

سأل هولمز قائلاً: ولا شيء آخر؟

- لا شيء له أهمية، فقط رواية كان الرجل يقرؤها قبل نومه وكانت بجوار السرير، وكان غليونه بجانبه على أحد الكراسي، بالإضافة إلى كوب من الماء على الطاولة وعلبة دواء رقيقة صغيرة تحتوي على زوج من الأقراص.

هَبَّ شيرلوك هولمز وهو يصيح بسعادة، فحدق إليه المحققان بذهول.

قال رفيقي بثقة: إنني أمسك الآن في يدي بكل الخيوط التي صنعت هذا اللغز المعقد. ومع أن بعض التفاصيل تنقصني إلا أنني متأكد من كل الوقائع الأساسية التي وقعت

منذ افتراق دريبر عن ستانغرسون في المحطة حتى اكتشاف جثة ستانغرسون، كما لو كنت رأيت تلك الأحداث بأمّ عيني. سأثبت لكم صحة كلامي. أتستطيع الحصول على هذين القرصين؟

قال ليستراد: إنهما معي، فقد أخذتهما مع المحفظة والبرقية وفي نيتي أن أضعها في مكان أمين بمركز الشرطة. من المصادفة البحتة أنني أخذت علبة الأقراص، فأنا مضطر إلى القول بأنني لا أرى فيها أي أهمية.

قال هولمز: أعطني العلبة. ثم التفت إليّ وقال: والآن يا دكتور، هل هذان القرصان من نوع مألوف؟

لم يكونا كذلك بالتأكيد. كانا قرصين صغيرين مستديرين لونهما رمادي لامع أملس، يكاد يكون شفافاً أمام الضوء. قلت: من خفّة وزنهما وشفافيّتهما أتصور أنهما يذوبان في الماء بسهولة.

أجاب هولمز قائلاً: تماماً. والآن أرجو أن تتكرم بالنزول لإحضار ذلك الكلب الصغير المسكين الذي عانى من المرض منذ وقت طويل حتى رجتك صاحبةُ المنزل بالأمس أن تُريحه من عذابه.

نزلت فحملت الكلب بين ذراعَي وصعدت به إلى الطابق العلوي، وقد ظهر من لهاثه المتقطع وخفوت عينيه أنه قارب نهايته.

قال هولمز وهو يسحب سكينه الصغير محوّلاً أقواله إلى

أفعال: سأقسم أحد هذين القرصين إلى نصفين، نعيد أحدهما إلى العلبة لنستفيد منه في المستقبل، أما النصف الآخر فسوف أضعه في كأس فيه ملعقة صغيرة من الماء. وكما تلاحظون فإن صديقنا الطبيب كان على حق، فقد ذاب القرص بسهولة.

قال ليستراد بنبرة صوت تقترب من السخرية: يمكن لهذا العرض أن يكون في غاية التشويق، ولكني لا أرى علاقته بمقتل السيد جوزف ستانغرسون.

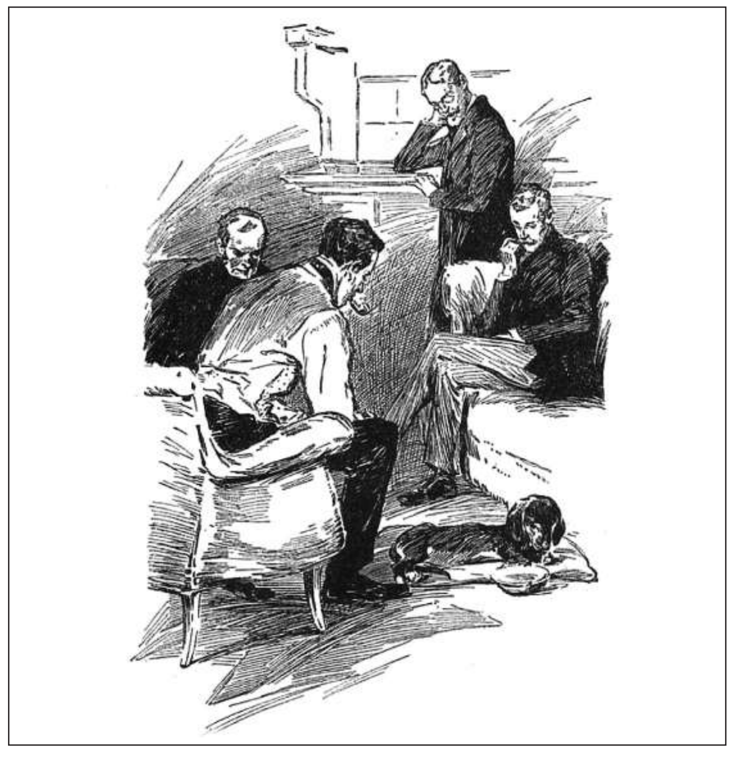
- تحلَّ بالصبر يا صديقي! سوف تكتشف في الوقت المناسب أن علاقته بالجريمة علاقة وثيقة. سأضيف الآن بعض الحليب لأجعل المزيج مستساغاً، وكما ترون فحين قدمناه إلى الكلب لعقه عن طيب خاطر.

وضع محتويات الكأس في صحن فنجان وقدمه إلى الكلب الذي أخذ يلعق المحتويات حتى أنهاها. تأثرنا بتصرفات هولمز الجادّة فجلسنا بصمت نراقب الكلب باهتمام متوقعين نتيجة مذهلة، ولكن شيئاً مما توقعناه لم يحدث، فقد رقد الكلب متمدداً على الأريكة وهو يلهث بشكل متقطع، وبدا واضحاً أن الشراب لم يضرّه ولم ينفعه.

أمسك هولمز بساعته، وفيما أخذت الدقائق تمرّ واحدة تلو الأخرى بلا نتيجة ظهرت في وجهه ملامح الكدر وخيبة الأمل، فأخذ يعضّ على شفتيه ويدق بأصابعه على الطاولة، وأظهر كل الأعراض الأخرى لنفاد الصبر! كان انفعاله هائلاً لدرجة جعلتني أشعر بالأسف عليه، بينما ابتسم المحققان

الآخران بسخرية وهما لا يشعران بالانزعاج من هذا العائق الذي وقف أمام هولمز.

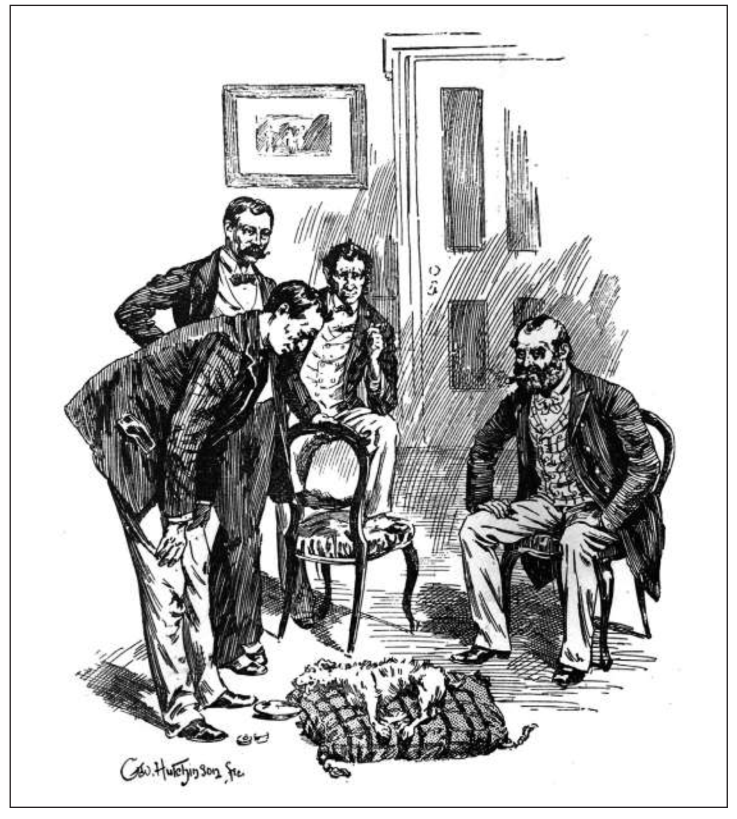
وأخيراً صاح قائلاً بعد أن هَبّ عن كرسيه واقفاً وأخذ يقطع الغرفة ذهاباً وإياباً: لا يمكن أن يكون الأمر مصادفة، مُحالٌ أن يكون الأمر مجرد مصادفة، فالأقراص التي شككت بوجودها في قضية مقتل دريبر عُثر عليها بعد مقتل ستانغرسون، ولكنها عديمة المفعول، فما معنى هذا؟ من المؤكد أن سلسلة التحليل المنطقي التي وضعتُها للأحداث لم تكن على خطأ،



رسم رتشارد غوتْشمِت (١٩٠٢) Richard Gutschmidt (1902)

هذا مستحيل. ومع هذا فها هو الكلب الضئيل لم تتدهور حالته. آه، وجدتها، وجدتها!

أطلق صيحة سرور عارمة، ثم أسرع إلى العلبة فقسم القرص الثاني إلى نصفين وحلّ نصفَه بالماء ثم أضاف إليه اللبن وقدمه إلى الكلب، ولم يكد المخلوق البائس يضع لسانه بالمزيج حتى تشنّجت أطرافه وارتعشت وفارقته الحياة، فرقد متصلباً كما لو أنه أصيب بصاعقة!



رسم جورج هَتْشِنْسون (١٨٩١) George Hutchinson (1891)

تنفس هولمز الصعداء ومسح العرق عن جبينه قائلاً: كان يجب أن أكون أكثر ثقة، فعندما تبدو إحدى الحقائق متعارضة مع سلسلة طويلة من الاستنتاج فهذا يعني دائماً وجود تفسير آخر. في أحد القرصين الموجودين في هذه العلبة سم قاتل، أما الآخر فغير مؤذ على الإطلاق. كان عليّ أن أعرف هذا قبل أن أرى العلبة.

بدا لي هذا التصريح الأخير مفزعاً جداً حتى إنني كدت لا أصدق أنه في كامل وعيه، ولكن كان الكلب الميت دليلاً على أن استنتاجه كان صحيحاً. وبدأت أحس بالغشاوة تنقشع بالتدريج عن عقلي لأدرك الحقيقة بشكل غامض.

أكمل هولمز قائلاً: يبدو كل هذا غريباً لكم لأنكم فشلتم عند بداية التحقيق في إدراك الدليل الحقيقي الوحيد الذي كان أمامكم، أما أنا فقد كان من حسن حظي أنني وضعت يدي عليه، وكل ما حدث منذ ذلك الوقت أكد افتراضي، بل لقد كان في الحقيقة نتيجة منطقية له. لهذا فإن كل الأشياء التي كانت تحيركم وتجعل القضية أكثر غموضاً في ظاهرها ساعدتني على توضيح القضية وتقوية استنتاجاتي. من الخطأ الخلط بين الغرابة والغموض؛ إن الجريمة الأكثر بساطة هي في الغالب الأكثرُ غموضاً لأنها لا تقدم تلك الملامح الجديدة أو المميزة التي تساعد على الاستنتاج، وكان حل هذه الجريمة سيصبح أكثرَ صعوبة لو أن جثة الضحية عُثر عليها ببساطة ملقاة في أحد الشوارع دون أن يصاحبها أيٌّ من تلك الأمور الغريبة المثيرة التي جعلت منها قضية مميزة. هذه التفاصيل

الغريبة لا تجعل القضية أكثرَ صعوبة، بل تجعلها أقل صعوبة في الحقيقة.

لم يستطع غريغسون تمالك أعصابه أكثر من ذلك، وقد كان يستمع إلى هذه الخطبة بنفاد صبر، فقال: انظر يا سيد شيرلوك هولمز، إننا جميعاً على استعداد للاعتراف بذكائك وبأن لديك أسلوبك الخاص في العمل، ورغم ذلك فنحن الآن نريد شيئاً أكثر من مجرد الكلام النظري. ما يهمنا الآن هو القبض على الفاعل. لقد أقمتُ البرهان على القضية ولكن يبدو أنني كنت مخطئاً، فلا يمكن أن يكون تشاربنتر قد تورط في القضية الثانية. كما أن ليستراد سعى خلف الرجل الذي شك في تورطه، وهو ستانغرسون، ومن الواضح أنه كان على خطأ أيضاً. وها أنت ترمي بالتلميحات هنا وهناك ويبدو أنك تعرف أكثر مما نعرف، وجاء الوقت الذي نرى فيه من حقنا أن نسألك مباشرة عن مدى ما تعرفه عن الأمر. فهل تستطيع ذكر اسم القاتل؟

علق ليستراد قائلاً: لا أستطيع منع نفسي من الشعور بأن غريغسون على حق يا سيدي، فقد حاول كلانا وفشل، أما أنت فقد قلت أكثر من مرة -منذ دخلتَ إلى غرفة الجريمة- أن لديك كل الأدلة التي أردتها، ومن المؤكد أنك لن تمنعها عنا لوقت أطول.

أضفت أنا قائلاً: إن أي تأخير في القبض على القاتل قد يمنحه الوقت لارتكاب جريمة وحشية جديدة.

عندما ضغطنا كلنا على هولمز ظهر في وجهه بعض التردد، فأخذ يقطع الغرفة ذهاباً وإياباً ورأسه غارق على صدره وحاجباه معقودان إلى الأسفل كعادته حين يكون مستغرقاً في التفكير.

ثم توقف فجأة واستدار ليواجهنا، فقال أخيراً: لن يحصل المزيد من جرائم القتل؛ يمكنكم وضع هذا الخوف خارج الحسبان. لقد سألتموني إن كنت أعرف اسم القاتل، وأنا أعرفه، ولكن معرفة اسمه أمر بسيط مقارنة بقدرتي على الوصول إليه، وهذا ما أتوقع حدوثه قريباً وأملك أملاً كبيراً في تحقيقه عن طريق بعض الترتيبات التي عملت بها. ولكنه أمر يحتاج إلى معالجة دقيقة لأننا نتعامل مع رجل يائس ماكر يساعده (كما ظهر لي في أحد المواقف) شخص على القدر نفسه من المكر والمهارة. لذلك وطالما أن الرجل ليست لديه فكرة عن أن أحداً ما يملك دليلاً ضده فالفرصة قائمة للقبض عليه، ولكن لو راوده أقل شك فسوف يغيّر اسمه ويتلاشى في لحظة خاطفة بين أربعة ملايين شخص يقيمون في هذه المدينة العظيمة. أرجو أن لا أجرح مشاعركما، ولكنني مضطر إلى القول بأنني أعتبر هذين الرجلين أكثرَ مهارة من رجال الشرطة الرسمية، لهذا لم أطلب مساعدتكما. وأنا مستعد بالطبع أن أتحمل كل اللوم في حالة الفشل، أما في الوقت الحالي فسوف أعدكما بأنني سأتصل بكما في اللحظة التي أتأكد فيها أن اتصالي لن يعرّض خطتي للخطر.

لم يَبدُ على غريغسون وليستراد الرضا بهذا التأكيد، ولا

بالتلميح إلى قلّة كفاءة رجال الشرطة! احمرّ وجه الأول حتى جذور شعره الكتاني ولمعت عينا الثاني الصغيرتان بالفضول والامتعاض. ولكن لم يُتَح لأي منهما الوقت للكلام على أية حال، فقد قطعت اجتماعَنا طرقاتٌ على الباب ليعلن مندوبُ مشرّدي الشوارع المدعو ويغنز عن وصوله.

قال وهو يؤدي التحية: عفواً يا سيدي، ولكن العربة تنتظرنا في الأسفل.

قال هولمز بلطف: إنك صبي بارع! ثم أكمل قائلاً وهو يُخرج زوجاً من القيود الحديدية من الدُّرج: لماذا لا تستخدم الشرطة البريطانية هذا النوع الجديد؟ انظرا كيف يعمل الزنبرك بسهولة، كما أنه يُغلَق بلحظة.

قال ليستراد: إن النوع القديم يعمل جيداً بما فيه الكفاية... لو استطعنا فقط القبض على الرجل المطلوب تقييده.

قال هولمز مبتسماً: حسناً، حسناً، يمكن لسائق العربة أن يساعدني في حمل صناديقي. اطلب منه الصعود يا ويغنز.

دُهشت حين رأيت رفيقي يتصرف كما لو كان على وشك البدء برحلة ما، لأنه لم يخبرني سابقاً بأي شيء عن هذا الأمر. كانت في الغرفة حقيبة صغيرة سحبَها وبدأ بربطها، وكان مشغولاً بهذا الأمر حين دخل سائق العربة إلى الغرفة، فقال وهو راكع ومستغرق في مهمته دون أن يدير وجهه على الإطلاق: ساعدني في ربط هذا المشبك أيها السائق.

تقدم الرجل وقد بدت على ملامحه الكآبة واللامبالاة ومَدّ يديه ليساعد بالعمل، وفي تلك اللحظة سمعنا صوت قرقعة حادة وصليلَ معدن، وهَبّ شيرلوك هولمز واقفاً على



رسم رتشارد غوتْشمِت (١٩٠٢) Richard Gutschmidt (1902)

قدميه فقال بعينين لامعتين: أيها السادة، أقدم لكم السيد جفرسون هوب، قاتل دريبر وستانغرسون.

* * *

حدث كل شيء في لحظة خاطفة، حدث بسرعة لم تسمح لي باستيعابه، فأنا لا أذكر تلك اللحظة إلا بشكل مبهم، وأذكر تعبير هولمز المُنتصر ورنّة صوته، ووجه السائق القاسي المذهول حين حملق إلى القيود اللامعة التي ظهر وكأنها وُضعت في معصمَيه بشكل سحري.

جَمَدنا بضع ثوان وكأننا مجموعة من التماثيل، ثم أفلت السجين من قبضة هولمز مطلقاً صيحةَ غضب عاجز وأسرع إلى النافذة. تحطم الخشب والزجاج تحت ثقل اندفاعه، ولكن قبل أن ينجح في الهرب عبرها قفز عليه ليستراد وغريغسون وهولمز مثل كلاب الصيد وسحبوه بعيداً عنها داخل الغرفة، فبدأ صراع رهيب، فقد كان الرجل من القوة والعنف بحيث إنه تخلص منا نحن الأربعة مراراً وتكراراً. بدا وكأنه يتمتع بقوة تشنجية لشخص يعاني من نوبة صَرْع، وكانت في وجهه ويديه جروح رهيبة بسبب مروره عبر الزجاج المكسور، ولكنّ فَقْدَه للدم لم يكن له أثر في تقليل مقاومته.

لم يقتنع الرجل بأن مقاومته كانت بلا فائدة إلا بعد أن نجح ليستراد في الإطباق على عنقه وكاد يخنقه، وحتى في ذلك الوقت لم نشعر بالأمان إلا بعد أن قيّدنا ساقيه بالإضافة إلى يديه. وبعد أن انتهينا من ذلك كله نهضنا على أقدامنا

لاهثين مقطوعي النفَس.

قال شيرلوك هولمز: إن عربته في الأسفل، ونستطيع أن ننقله فيها إلى مركز الشرطة.

ثم قال بابتسامة فرحة: والآن يا سادة، ها قد وصلنا إلى نهاية لغزنا الصغير، ويمكنكم طرح أي سؤال عليّ بكل سرور ولن أرفض الإجابة.

* * *

الجزء الثاني

أرض القدّيسين

الفصل الأول
في القِفار الواسعة

كانت الصحراء القاحلة المهجورة في الجزء الأوسط من قارة أمريكا الشمالية عائقاً منيعاً أمام التطور الحضاري لسنوات طويلة، فالمنطقة الممتدة من جبال سييرا نيفادا إلى نِبراسكا ومن نهر يَلوسْتون في الشمال إلى كولورادو في الجنوب يسودها السكون والخراب، والطبيعة في أنحاء تلك المناطق الموحِشة متباينة جداً، بين وديان مظلمة كئيبة وجبال عالية تغطي قممَها الثلوج، وأنهار تتدفق بسرعة عبر وديان عميقة متشعبة ذات جوانب شديدة الانحدار وسهول واسعة تكتسي في الشتاء بالثلج الأبيض وفي الصيف بتراب رمادي محمّل بالأملاح القلوية، وهي كلها تحتفظ بخصائص المنطقة المميزة من القَفر والبؤس والقسوة.

في أرض اليأس تلك لا يعيش سكان، وإنْ عبرَتها من حين لآخر مجموعات من السكان الأصليين متنقلين إلى أراض أخصب وأوفر بالخيرات، وإن أشجع الناس لَيكونُ سعيداً حين يبتعد عن تلك السهول المخيفة إلى الأرض الخضراء. وهكذا اقتصرت سُكنى تلك البراري الموحشة على النسور التي تخفق

بأجنحتها في الهواء والذئاب المتوارية خلف الشجيرات والدببة البنّية الثقيلة التي تمشي ببطء عبر الوديان وهي تلتقط من بين الصخور ما تعثر عليه من القوت.

لن تجد في العالم كله منظراً أكثرَ رهبة من ذلك المنظر الذي تراه وأنت واقف على المنحدر الشمالي لجبال سييرا بلانكا، حيث تمتد بلا نهاية أراض سهلية منبسطة تنتشر فيها رقع من الرماد القلوي وتتخللها أجمات محدودة من الشجيرات القصيرة المتشابكة، وعند حافة الأفق البعيد تمتد سلسلة طويلة من الجبال تكسو قممَها الوعرة الثلوج.

لم يكن في تلك المنطقة الواسعة الممتدة أثر للحياة، ولا لأي شيء له علاقة بالحياة. لم يكن هناك طير في السماء الزرقاء الصافية ولا حركة على الأرض الكئيبة الرمادية، لم يكن غير الصمت المطلق، فمهما أنصت المرء لن يسمع صدى لأي صوت في تلك البرية الهائلة، لا شيء غير الصمت، الصمت الكامل المميت.

على أن القول بأن ذلك السهل الواسع لم تكن فيه حياة لم يكن صحيحاً تماماً، فلو وقف المرء على منحدر سييرا بلانكا ونظر إلى الأسفل سيرى طريقاً يقطع الصحراء ثم ينعطف ويختفي عن بعد، طريقاً حفرته عجلات العربات ومشت عليه أقدام مغامرين كثيرين، بينما ترى هنا وهناك قطعاً بيضاء متناثرة تلمع في الشمس وتبرز بين الترسبات القلوية الكئيبة، فإذا اقتربت لتفحصها وجدتها عظاماً وبقايا عظام،

بعضها كبير غليظ وبعضها أصغر وأدق، الأولى تخص الثيران والأخرى تخص الإنسان.

لمسافة ألف وخمسمئة ميل يمكن للمرء أن يتبع أثر طريق القوافل المخيف هذا بمجرد تتبع رُفات أولئك التعساء الذين سقطوا في الطريق.

* * *

في الرابع من مايو عام ١٨٤٧ وقف مسافر وحيد ينظر إلى ذلك المشهد، وقد بدا من مظهره وكأنه جنّي خرج من أعماق الأرض! لم يكن بوسع من يشاهده أن يحدد إن كان عمره أقرب إلى الأربعين أو الستين. كان وجهه نحيلاً مرهقاً وجلده الداكن مشدوداً على عظامه البارزة وقد غزا الشيب لحيته وشعر رأسه الطويل. كانت عيناه غائرتين في رأسه وتشتعلان ببريق غير عادي، ولم تكد اليد التي قبضت على بندقيته تكتسي بلحم أكثر من الهيكل العظمي بكثير!

استند في وقفته على سلاحه، وقد دلّ طول جسمه وضخامة هيكله على بدن قوي مفتول العضلات، ولكن وجهه الهزيل وملابسه التي بدت واسعة جداً على أطرافه الواهنة صرخت بالسبب وراء مظهره الواهن الكليل، فالرجل كان يموت... يموت من العطش والجوع.

كان قد جاهد بألم ليسير عبر الوادي الضيق شديد الانحدار، ثم ليصعد إلى هذا المكان المرتفع قليلاً على أمل أن يرى أي أثر للماء، ولكن بلا جدوى، فها هو السهل

المِلْحيّ الهائل يمتد أمام عينيه وسلسلة الجبال الوعرة تظهر من بعيد دون أي أثر لشجر أو نبات يدل على وجود بعض الماء. لم تظهر بارقة أمل في كل تلك الأراضي الواسعة، فنظر بعينين هائجتين متسائلتين إلى الشمال وإلى الشرق وإلى الغرب، ثم أدرك أن تجواله على غير هدى قد انتهى وأنه سيموت على تلك الصخرة الجرداء.



رسم جورج هَتْشِنْسون (١٨٩١) George Hutchinson (1891)

غمغم وهو يتخذ لنفسه ملجأ داخل صخرة: بعد عشرين عاماً لن يبقى فرق بين هذا المكان وسرير وثير، فلماذا لا أموت هنا الآن؟

قبل أن يجلس ألقى سلاحه عديم الفائدة على الأرض، ووضع أيضاً حزمة كبيرة مربوطة بشال رمادي كان يحملها على كتفه الأيمن، ويبدو أنها كانت ثقيلة لأنها وقعت على الأرض ببعض العنف، وفي الحال صدر من الصُرّة الرمادية صوتُ أنين خَفيض وظهر وجهٌ صغير خائف له عينان بنّيتان لامعتان وقبضتان صغيرتان.

قالت بتأنيب وبصوت طفولي: لقد أوجعتني!

أجاب الرجل بندم: هل فعلت؟ لم أقصد.

فكّ الشالَ الرمادي ليحرر طفلة جميلة في نحو الخامسة من عمرها، وقد ظهر من حذائها الأنيق ومعطفها الوردي الجميل مدى اهتمام والدتها بها. كانت الطفلة شاحبة ضعيفة، ولكن بدا من امتلاء ذراعيها وساقيها أن معاناتها كانت أقل من معاناة الرجل الذي حملها.

كانت ما تزال تحكّ مؤخرة رأسها الذي كسته خصلات من شعرها الذهبي، فسألها بقلق: كيف الحال الآن؟

قالت وهي تضع يدها على البقعة التي تؤلمها: قبِّلْ رأسي لكي يزول الألم، فهذا ما اعتادت أمي على فعله. أين أمي؟

قال: رحلت، وأظن أنك ستقابلينها قريباً.

قالت الفتاة الصغيرة: رحلت؟! غريب، فهي لم تودعني، بالرغم من أنها دائماً ما كانت تفعل، حتى حين تذهب إلى بيت خالتي لشرب الشاي فقط، والآن ها هي غائبة منذ ثلاثة أيام! إن الجو حار، أليس كذلك؟ أليس معك شيء للشرب أو الأكل؟

- لا يا عزيزتي. عليك أن تصبري لبعض الوقت ثم ستكونين بخير بعد ذلك. ضعي رأسك على كتفي هكذا وسوف تشعرين بقوة أكبر، فلا يحسن الكلام وشفتاك جافتان. والآن سأخبرك كيف يمكن للبوصلة أن تخطئ... آه، ماذا لديك هنا؟

صاحت الصغيرة بحماسة وهي ترفع بعض الأحجار اللامعة: أشياء جميلة، أشياء لطيفة. عندما نعود إلى البيت سأعطيها لأخي بوب.

قال الرجل بثقة: ستشاهدين أشياء أجمل منها قريباً، انتظري قليلاً فقط. كنت سأخبرك... أتذكرين عندما تركنا النهر؟

-آه، نعم.

- حسناً، لقد ظننا أننا سنجد نهراً آخر بعده بمسافة قصيرة، أتفهمين؟ ولكن وقع خطأ ما، ربما بسبب البوصلة أو الخريطة أو أي شيء آخر... المهم أننا لم نجد النهر، وهكذا فقد نفد الماء كله، فيما عدا قطرات صغيرة لِمَن هم مثلك و...

قاطعته الطفلة قائلة وهي تحدق إلى وجهه المتسخ: ولم

تجد الماء لتغتسل؟

- لا لأغتسل ولا لأشرب! وهكذا رحل السيد بيندر أولاً، ثم الهندي بيت، ثم السيدة ماكغرغور، وبعدها جوني هونز، ثم تلته يا عزيزتي... تلته أمك!

صرخت الفتاة وهي تدفن وجهها في مريلتها باكية بحرقة: أمي ماتت إذن؟

- نعم، لقد ماتوا جميعاً ولم يبقَ غيرنا أنت وأنا. بعد ذلك اعتقدت أننا قد نعثر على الماء في هذه الجهة، فحملتك على كتفي وسرنا معاً، ولكن لا يبدو أننا في موقف أفضل؛ إن فرصتنا في غاية الضآلة.

توقفت الفتاة عن البكاء ورفعت وجهها المبلل بالدموع لتسأل: أتقصد أننا على وشك الموت أيضاً؟

- أعتقد أن الأمر هكذا.

قالت الفتاة وهي تضحك بسعادة: لماذا لم تخبرني من قبل؟ لقد أخفتني بشدة. طالما سنموت فإننا سوف نلتقي بأمي ثانية بالطبع.

- نعم يا عزيزتي، ستقابلينها.

- وأنت أيضاً ستراها، وسوف أخبرها كم كنت طيباً معي. أراهن أنها ستلقانا ومعها إبريق من الماء وكثير من الكعك الساخن المحمَّص على الجانبين كما كنت أحبه أنا

وبوب. كم بقي من الوقت قبل أن نلقاها؟

قال الرجل: لا أعلم، لم يبقَ وقت طويل.

ثبتت عيناه على الأفق ناحية الشمال حيث ظهرت ثلاث نقاط صغيرة في قبة السماء الزرقاء، وأخذ حجمها يتزايد كل لحظة وهي تقترب بسرعة، فإذا بها ثلاثة طيور بنّية كبيرة أخذت تدور فوق رأسَي ذينك الهائمَين في الصحراء، ثم استقرت على بعض الصخور المطلّة عليهما. كانت من نسور الصحراء التي تنذر بالموت.

قال الرجل بوقار: ما رأيك أن نصلي الآن؟

أجابت الفتاة: ولكن الليل لم يحلّ بعد.

- لا يهم، فإن الله يقبل الصلوات في كل وقت. ردّدي الدعاء الذي اعتدت أن تقوليه كل ليلة في العربة حين كنا في السهول.

سألته الطفلة بعينين متسائلتين: ولما لا تدعو أنت أيضاً؟

قال: لقد نسيت الكلمات، فأنا لم أصلّ منذ أن كنت بنصف طول هذا السلاح، وإن كنت أعتقد أن الأوان لم يَفُت بعد. رددي الدعاء بصوت عال وسأقف أنا بجوارك وأردد خلفك.

قالت الطفلة وهي تفرش الشال على الأرض: عليك إذن أن تجثو على ركبتيك، وأنا أيضاً، وأن ترفع يديك إلى الأعلى هكذا، فإنه يجعلك تشعر بالراحة.

جثا التائهان على الشال، المغامر المنهَك والطفلة الصغيرة الثرثارة، جنباً إلى جنب. رفعت وجهها الممتلئ ورفع وجهه النحيل إلى السماء الصافية في استعطاف مخلص للقادر الرحيم الذي كانا بين يديه، وتردد صوتان، أحدهما واضح دقيق والآخر أجشّ عميق، اتحدا معاً يرجوان الرحمة والمغفرة.

انتهت الصلاة فرجعا للقعود في ظل الصخرة الكبيرة، وسرعان ما غفت الطفلة مستكينةً على صدر حاميها العريض.



رسم رتشارد غوتْشمِت (١٩٠٢) Richard Gutschmidt (1902)

أمضى في حراستها بعض الوقت، ولكن النوم غلبه لأنه لم يسمح لنفسه لا بنوم ولا براحة لمدة ثلاثة أيام بلياليها، فأغمض جفنيه ببطء فوق عينيه المتعبتين، وغاص رأسه أكثر وأكثر على صدره حتى اختلط شعر لحيته الأشيب بشعر رفيقته الذهبي، وغرق كلاهما في نوم عميق.

* * *

لو بقي التائهان مستيقظَين نصف ساعة أخرى لشاهدا منظراً غريباً، فقد ارتفعت بعيداً في أقصى السهل المِلْحيّ سحابة صغيرة من التراب. كانت ضئيلة جداً في البداية حتى لا تكاد تَبين على البُعد، ثم أخذت تكبر وتزداد ارتفاعاً حتى صارت سحابة محددة واضحة، وما زال حجمها في ازدياد حتى بات واضحاً أنها لا يمكن أن تنشأ إلا عن حركة جمع حاشد من المخلوقات المتحركة. ولو كنا في بقعة أكثر خصوبة لظن المرء أن قطيعاً من الثيران الضخمة التي ترعى في المروج تقترب منه، ولكن كان ذلك مستحيلاً في تلك البرّية الجدباء.

بينما اقتربت دوامة الغبار من المنحدر المهجور الذي رقد التائهان في أعلاه بدأت أغطية العربات المصنوعة من القماش وأشكالُ الرجال المدجّجين بالسلاح على الأحصنة بالظهور من وسط الغيمة الترابية، فاتضح أنها قافلة كبيرة تسير في رحلة إلى الغرب. ويا لها من قافلة عظيمة! فحين وصلت مقدمتها إلى قاعدة الجبال لم يكن آخرها قد ظهر في الأفق بعد.

امتدّ عبر السهل الهائل حشدٌ هائل غير منتظم من

العربات الكبيرة والصغيرة ورجال يركبون على ظهور الأحصنة أو يسيرون على الأرجل، ونساء لا يُحصَينَ يسرنَ مترنّحات تحت ثقل الأحمال، وأطفال يمشون ببطء بجوار العربات أو يختلسون النظر من تحت أغطيتها. لم تكن مجموعةً عادية من المهاجرين، بل جماعة من الرحالة الذين اضطروا إلى البحث عن وطن جديد. تمزّقَ حجابُ السكون بأصوات ذلك العدد الهائل من البشر وهمهماتهم التي اختلطت بقرقعة العربات وصهيل الخيول، ورغم ارتفاع تلك الأصوات إلا أنها لم تكن كافية لإيقاظ الشخصين المتعبَين النائمَين في الأعلى على الصخور.

تقدم القافلةَ عشرون رجلاً يبدو عليهم الوقار وعلى وجوههم القسوة، يرتدون ملابس بسيطة كئيبة ويحملون البنادق. وعندما وصلوا إلى سفح المنحدر توقفوا وعقدوا جلسة مشاورات قصيرة. قال أحدهم، وهو رجل أشيب الشعر حليق الوجه ذو شفاه غليظة: إن الآبار باتجاه اليمين يا إخوتي.

قال آخر: يمين سييرا بلانكا، وهكذا سنصل إلى ريو غراند.

صاح ثالث: لا تخافوا نفاد المياه، فالقادر الذي جعلها تجري بين الصخور لن ينسى عباده المؤمنين.

استجابت المجموعة كلها قائلة: آمين آمين.

كانوا على وشك استئناف رحلتهم حين أطلق واحد من الرجال الأصغر سناً والأحدّ بصراً صيحة وأشار إلى الصخرة

العالية المدببة البارزة من الجبل فوقهم، فقد تحركت هناك كتلة صغيرة وردية تظهر بوضوح فوق الصخور الرمادية. عندما شاهدوا ذلك المنظر تعالت أصوات كبح الجياد وإنزال السلاح، وجاء عدد جديد من الفرسان على صهوات جيادهم لتعزيز المقدمة، وقد ترددت كلمة «الهنود» على كل لسان.

قال الأكبر سناً والذي بدا وكأنه زعيمهم: لا يمكن أن يكونوا هنوداً، فقد تخطينا منطقة قبيلة الباوني، ولن نمرّ بقبائل أخرى حتى نعبر الجبال العظيمة.

قال واحد من الجماعة: هل أتقدم لاستطلاع الأمر أيها الأخ ستانغرسون؟

صاح بعض الرجال الآخرين: وأنا أيضاً، وأنا أيضاً...

قال الأكبر سناً: اتركوا جيادكم بالأسفل وسوف ننتظركم هنا.

ترجّل الشباب عن صهوات جيادهم وأخذوا يصعدون الجبل المنحدر الذي يقودهم إلى ذلك الشيء الذي أثار فضولهم. تقدموا بسرعة وبلا ضجة، تبدو عليهم ثقة وبراعة المستكشفين المتمرسين. كان المشاهدون الواقفون في السهل بالأسفل يشاهدونهم وهم يقفزون من صخرة إلى أخرى حتى وصلوا إلى القمة. كان الشاب الذي أطلق التحذير في البداية يقودهم، وفجأة رآه تابعوه وهو يلوّح بيديه إلى الأعلى وكأن الدهشة غلبته، وحين انضموا إليه فاجأهم المنظر الذي شاهدوه.

على الهضبة الصغيرة في أعلى التل القاحل كانت صخرة عملاقة وحيدة استند إليها رجل له لحية طويلة وملامح قاسية ويعاني من النحافة المفرطة، وقد ظهر من صوت تنفسه المنتظم وملامح وجهه الهادئة أنه مستغرق في النوم. وبجانبه رقدت طفلة تحيط رقبتَه بذراعيها الغضتين وقد استكان رأسها ذو الشعر الذهبي على صدر سترته القطنية، وقد انفرجت شفتاها الورديتان عن أسنان منتظمة بيضاء وابتسامة لطيفة زيّنت ملامحها الطفولية، وفي قدميها حذاء أنيق بمشبك لامع. وهناك على حافة الصخرة فوق ذلك الزوج الغريب من البشر ربضت ثلاثة نسور كئيبة، أطلقت صيحات إحباط خشنة ثم خفقت بأجنحتها مبتعدة بغضب.

أيقظت صيحات الطيور المشؤومة النائمَين اللذين أخذا يحدّقان حولهما في ذهول، وتمايل الرجل واقفاً على قدميه، ثم نظر إلى السهل الذي كان موحشاً عندما غلبه النوم والذي تعبره الآن هذه الكتلة الضخمة من البشر والحيوانات. عندما رأى ذلك المنظر ظهر في وجهه الشك فمسح عينيه بيده ذات العظام الناتئة، ثم غمغم قائلاً: اعتقد أن هذا هو ما يسمونه الهلوَسة! أما الطفلة فوقفت بجواره متمسكة بمعطفه دون أن تقول شيئاً، وأخذت تنظر حولها نظرة طفولية حائرة متسائلة.

استطاع فريق الإنقاذ إقناعهما بأن ظهورهم ليس وهماً، فرفع أحدهم الطفلة ليحملها على كتفه، وسند آخران الرجل الهزيل فساعداه على الوصول إلى العربات.

قال التائه: اسمي جون فيريير، وأنا والصغيرة آخر مَن بقي مِن مجموعة من واحد وعشرين شخصاً. الباقون كلهم ماتوا من الجوع والعطش جنوباً.

سأل أحدهم: أهي ابنتك؟

قال بتحدّ: لقد صارت كذلك الآن. إنها ابنتي لأنني



رسم جورج هَتْشِنْسون (١٨٩١) George Hutchinson (1891)

أنقذتها، ولن يأخذها مني أحد. منذ الآن هي لوسي فيريير. ثم أكمل وهو ينظر إلى منقذيه الأشدّاء الذين لفحتهم الشمس: ولكن من أنتم على أية حال؟ يبدو أن عددكم كبير جداً.

أجاب أحد الشباب قائلاً: يكاد عددنا يقترب من عشرة آلاف، وقد جئنا من نوفو بولاية إلينوي التي أسسنا فيها كنيستنا. نحن نؤمن بالكتب المقدسة التي سُلّمت إلى المقدس جوزف سميث في بالميرا، وقد جئنا بحثاً عن ملجأ آمن بعيداً عن اضطهاد وعنف البشر الخاطئين، ولو كان الملجأ الآمن في قلب الصحراء.

نشّط اسم نوفو ذاكرةَ جون فيريير فقال: فهمت الآن، أنتم من المورْمون؟

أجاب الجميع بصوت واحد: نعم، نحن مورمون.

- وإلى أين تذهبون؟

- لا نعرف، فالله يوجهنا بقيادة مرشدنا، ويجب أن تقف أمامه ليقرر ما سنفعله بك.

كانوا قد وصلوا في ذلك الوقت إلى أسفل التل وطوّقتهم حشودُ المسافرين، من نساء شاحبات الوجوه تبدو عليهنّ الوداعة وأطفال فرحين ورجال يبدو القلق في عيونهم، وارتفعت صيحات الدهشة والشفقة حين لاحظوا مدى صِغَر سنّ الطفلة وهُزال الرجل. ولكن مرافقيهم لم يتوقفوا، بل واصلوا السير يتبعهم حشد كبير من المورمون حتى وصلوا

إلى إحدى العربات المميّزة، وقد بدت مختلفة بحجمها الكبير ومظهرها المبهرَج، وكانت تجرّها ستة أحصنة، بخلاف سائر العربات التي تجر بعضَها أربعةُ أحصنة وبعضها بحصانين فقط.

جلس إلى جوار السائق رجل لم يتجاوز الثلاثين، وقد دلّ رأسه الضخم وملامحه الحازمة على أنه القائد. كان يقرأ



رسم رتشارد غوتْشمِت (١٩٠٢) Richard Gutschmidt (1902)

كتاباً في يده، وحين اقترب الحشد وضَعَه جانباً واستمع لما حدث بانتباه، ثم التفت إلى فيريير وقال بصوت مهيب: لو أخذناكما معنا فلا بد أن تكونا من المؤمنين بمذهبنا، فلن نسمح بذئاب وسط قطيعنا. إننا نفضّل أن نتركك هنا لتبلَى عظامك في هذه البرّية على أن تكون نقطة العفن الصغيرة التي تُفسد الفاكهة كلها بمرور الوقت. فهل ستأتي معنا تحت هذه الشروط؟

قال فيريير: سوف آتي معكم تحت أي شروط.

قالها بتأكيد جعل الرجال الأكبر سناً والأكثر وقاراً يعجزون عن كبح الابتسام! وحدَه القائد احتفظ بتعبير وجهه القاسي الباعث على الرهبة وقال: خذه أيها الأخ ستانغرسون وأعطه شراباً وطعاماً، وللطفلة أيضاً، ولتتولّ أيضاً مهمة تعليمه ديننا المقدس. لقد تأخرنا بما يكفي. لنتقدم، هيا لنتحرك نحو الأرض المقدسة.

صاحت حشود المورمون قائلة: لنتحرك نحو الأرض المقدسة... وترددت الكلمات عبر القافلة تتناقلها الألسن من شخص لآخر حتى تحولت إلى مجرد همهمات بعيدة، فبدأت العربات الضخمة بالحركة مع ارتفاع أصوات قرقعة السياط وصرير العجلات، وسريعاً كانت القافلة كلها تتحرك على الطريق مرة أخرى.

أما الرجل والطفلة فقد اصطحبهما الرجل الكبير إلى عربته حيث كانت وجبتهما بانتظارهما، وقال: ستبقيان هنا،

وسوف تسترد عافيتك خلال أيام. في هذه الأثناء تذكر أنك صرت مورمونياً إلى الأبد، هذا ما قرره الزعيم بريغهام يونغ نيابة عن القديس جوزف سميث الذي تحدث بأمر الله.

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني

زهرة يوتاه

عانت قافلة المهاجرين معاناة كبيرة وتخطّت كثيراً من الصعاب حتى وصلوا أخيراً إلى ملجئهم النهائي، وادي يوتاه الواسع الغارق في نور الشمس، وأخبرهم قائدهم الشاب أن تلك الأراضي البكر ستكون ملكهم إلى الأبد.

وسرعان ما برهن يونغ على أنه مدير بارع إضافة إلى كونه قائداً حازماً، فقد رُسمت الخرائط وأُعِدّت الخطط لإقامة المدينة الجديدة، ووُزّعت المزارع المحيطة على المزارعين وعُهد إلى التجّار بالتجارة وإلى صاحب كل حِرفة بحرفته. وبسرعة انتشرت في المدينة الجديدة شوارع وميادين ونُزحت مياه المستنقعات وبدأت الزراعة، حتى إذا جاء الصيف كان محصول القمح الذهبي قد غطى أراضي الريف، وازدهر كل شيء في المستعمرة الغريبة الجديدة.

رافق جون فيريير والطفلة الصغيرة التي تبنّاها المورمون حتى نهاية رحلتهم العظيمة، فقد أقامت الصغيرة لوسي بسعادة في عربة الكبير ستانغرسون، وهو المأوى الذي شاركت فيه زوجات المورمونيّ الثلاث وابنَه، وهو صبي عنيد جريء في

الحادية عشرة من عمره. وما لبثت أن صارت مدلَّلة النساء الثلاث.

أما فيريير فقد أثبت -بعد تعافيه من فترة الحرمان التي مرّ بها- أنه دليل مفيد وصيّاد لا يتعب، وسرعان ما اكتسب احترام مرافقيه الجدد، فلمّا وصلوا إلى وجهتهم النهائية اتفقوا بالإجماع على منحه حصة من الأرض الواسعة المثمرة تعادل حصة أي شخص من المستوطنين.

في تلك المزرعة بنى جون فيريير منزلاً خشبياً صغيراً أضاف إليه الكثير على مر السنين حتى أصبح داراً واسعة. كان عمَلياً ودقيقاً في تعاملاته وماهراً في استخدام يديه، وقد ساعدته بنيته القوية على العمل ليل نهار لتحسين مزرعته فازدهرت ونجحت أعماله كلها، وبعد مضي ثلاث سنوات صار في حال أفضل من كل جيرانه، وبعد ستة أعوام صار ميسور الحال، وصار غنياً بعد تسعة أعوام، وبعد اثنتي عشرة سنة كان من أنجح الرجال في مدينة سولت ليك وواحداً من أشهر سكان المنطقة.

أمر واحد فقط بقي مزعجاً لزملائه المورمون، فلم تفلح جهودهم كلها في إقناعه بالزواج. ولم يقدّم سبباً لرفضه الدائم، بل تشبث فقط بتصميمه القوي العنيد. وقد اتهمه البعض بالفتور تجاه دينه الجديد، والبعض الآخر أرجع تصرفه إلى حب المال والرغبة في ادّخاره، وتكلم الناس أيضاً عن علاقة حب سابقة وعن فتاة شقراء ماتت على ضفاف الأطلسي... أيّاً

كان السبب فقد بقي فيريير بلا زواج، وإن كان قد احترم دين المستوطنة الجديدة في كل الأمور الأخرى حتى اشتهر بأنه رجل متدين شريف.

* * *

كبرت لوسي فيريير في المنزل الخشبي وساعدت أباها بالتبنّي في كل مهامه، وقد حلّ هواء الجبل المنعش ورائحة أشجار الصنوبر المهدئة محل الأم في رعاية الصبية الصغيرة. وسنةً بعد سنة ازدادت الفتاة طولاً وقوة، واعتادت أن تمتطي صهوة حصان أبيها البرّي وتتعامل معه براحة ونعومة كما لو كانت قد وُلدت في الغرب البعيد. وهكذا تفتح البرعم ليصبح وردة، وفي العام الذي أصبح أبوها أغنى الفلاحين صارت هي نموذجاً لأجمل ما تكون عليه الفتيات الأمريكيات في المنطقة.

لم يكن الوالد -على أية حال- هو أول من اكتشف أن طفلته صارت امرأة، فنادراً ما يحصل الأمر بهذا الشكل، فالتغير الغامض يحصل بشكل متدرج لا يمكن قياسه بمرور الوقت، حتى إن الفتاة نفسها لا تلاحظه إلا حين يرتعش قلبها فرحاً بنبرة صوت أو لمسة يد، فحينها تعلم بمزيج من الخوف والفخر أن طبيعة جديدة قد استيقظت في داخلها. قليلات هنّ اللاتي لا يسترجعنَ ذكرى ذلك اليوم ويتذكرنَ الموقف الذي أعلن بزوغ فجر حياة جديدة، وفي حالة لوسي فيريير كان الموقف خطيراً في حد ذاته، بغض النظر عن تأثيره المستقبلي في قدَرها وقدر آخرين معها.

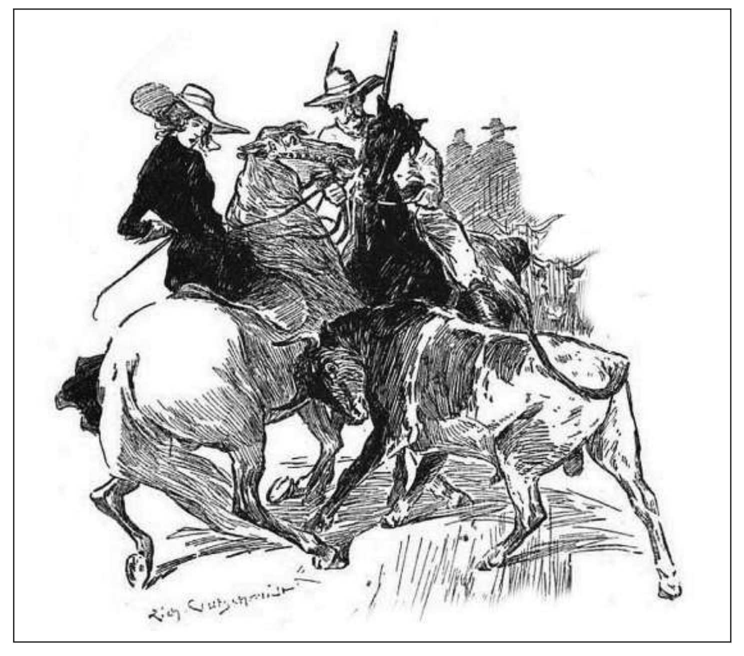
في صباح أحد أيام شهر حزيران (يونيو) الدافئة سارت قطعان البغال المحمّلة على الطرق العامة متجهة إلى الغرب، لأن حمّى الذهب كانت قد انتشرت في كاليفورنيا وكان الطريق البري إليها يمرّ بمدينة المورمون. كانت هناك أيضاً قطعان هائلة من الخراف والعجول جاءت من أراضي رَعْي بعيدة مع قوافل المهاجرين المتعَبين والخيول التي أجهدتها الرحلة الطويلة.

شقت لوسي فيريير طريقها وسط ذلك الحشد المختلط بمهارة الفارس المتمرس، وقد تورد وجهها الجميل من التمرين وتطاير شعرها الكستنائي خلفها. كان أبوها قد كلّفها بمهمة في المدينة، فانطلقت مسرعة -كما فعلت كثيراً من قبل- بكل جسارة الشباب وهي تفكر فقط في مهمتها. حدق إليها المغامرون الرحّالة في ذهول، حتى الهنود الجامدون الذين يسافرون مع جلودهم المدبوغة تخففوا من رزانتهم المعهودة وتمتعوا بالنظر إلى جمال الفتاة ذات الوجه الأبيض.

حين وصلت لوسي إلى ضواحي المدينة وجدت الطريق مسدوداً بقطيع كبير من الماشية يقوده ستة رعاة للماشية لهم مظهر قاس، فسعت إلى تخطي تلك العقبة بدفع حصانها نحو ما بدا لها أنه ثغرة آمنة، ولكن ما كادت تدخل فيها حتى أغلقت الحيوانات الطريق خلفها، فصارت محصورة تماماً داخل سيل متحرك من العجول ذات النظرات الهائجة والقرون الطويلة. ولأنها كانت معتادة على التعامل مع الماشية فإنها لم تفزع من الموقف، بل حاولت حثّ جوادها على التحرك إلى الأمام أملاً في الخروج من الموكب. ولكن لسوء الحظ

اصطدم قرن أحد تلك المخلوقات بخصر الحصان البرّي فثار جنونه، فتراجع ليقف على قدميه الخلفيتين مطلقاً صهيلاً غاضباً وأخذ يتقافز ويرجع إلى الوراء بطريقة كانت ستُسقط عنه أي فارس غير متمرس.

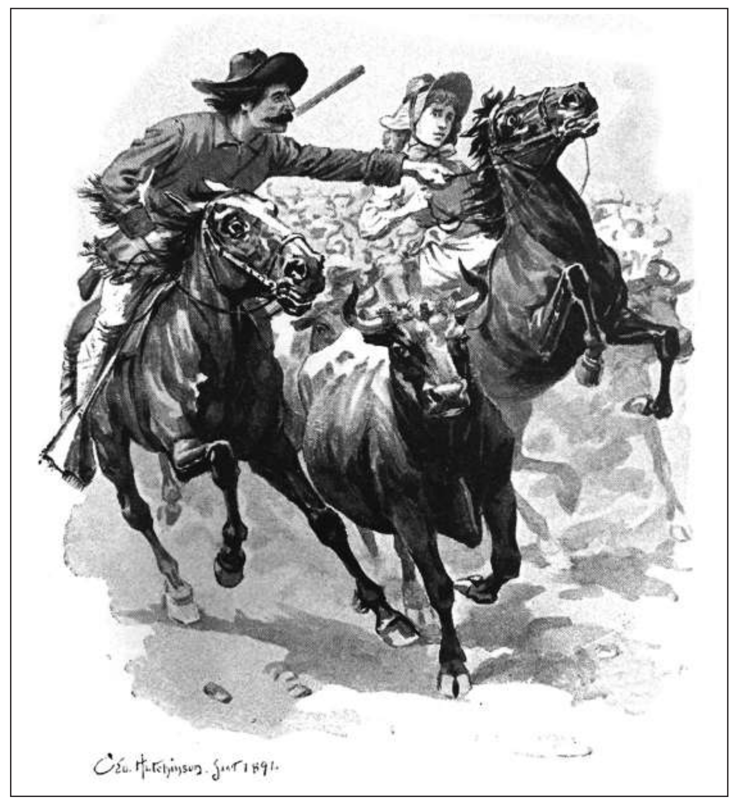
كان الموقف خطيراً، فكل حركة عنيفة من الحصان الهائج كانت تدفع به نحو قرن العجل ثانية وتزيد من ثورته. ولم تستطع الفتاة أن تصنع شيئاً سوى محاولة البقاء على السرج، فأي غلطة كانت تعني ميتة شنيعة تحت حوافر الحيوانات الضخمة الهائجة. لم تكن معتادة على التعامل مع الطوارئ المفاجئة، فبدأ رأسها يدور وبدأت قبضتها الممسكة



رسم رتشارد غوتْشمِت (١٩٠٢) Richard Gutschmidt (1902)

باللجام ترتخي وكادت تختنق من سحابة الغبار والبخار الناتج عن الحيوانات المتناطحة. وكان من الممكن أن تفقد الأمل وتتوقف عن المقاومة لولا أن سمعت صوتاً لطيفاً بجانبها يؤكد لها أنه سيساعدها، وفي اللحظة نفسها امتدت يد قوية لتمسك بالحصان الخائف من لجامه وتشق الطريق خارج القطيع.

قال منقذها باحترام: أرجو أن لا تكوني قد تأذيت يا آنسة؟



رسم جورج هَتْشِنْسون (١٨٩١) George Hutchinson (1891)

نظرت إلى وجهه الداكن القوي وضحكت بدلال قائلة: إنني خائفة جداً. مَن كان يظن أن بونشو سيخاف من مجموعة من الأبقار بهذا الشكل؟

قال بإعجاب: حمداً لله أنك تمسكت بمكانك على صهوة الحصان.

كان شاباً طويلاً قويّ الملامح يركب حصاناً كستنائي اللون ويرتدي ملابس الصياد الخشنة، وقد علّق بكتفه بندقية طويلة. قال: أظن أنك ابنة جون فيريير؟ رأيتك وأنت تخرجين من منزله على الحصان. حين تعودين إليه اسأليه إن كان يذكر جفرسون هوب من سينت لويس، فقد كان هو وأبي صديقين مقرّبَين... هذا إن كان هو نفس جون فيريير الذي أعرفه.

قالت برزانة: أليس من الأفضل أن تأتي وتسأله بنفسك؟

بدا أنه سُرّ بهذا الاقتراح، فلمعت عيناه الداكنتان فرحاً وقال: هذا ما سأفعله، ولكننا كنا في الجبال لمدة شهرين ولسنا مستعدين للزيارة. أخشى أن يزعجه مظهرنا.

أجابت: لا أظن، بل سيشكرك على ما فعلت، فهو يحبني كثيراً ولو أن الأبقار قتلتني لما تجاوز المحنة.

قال رفيقها: ولا أنا أيضاً.

- أنت! حسناً، لا أرى أن للأمر أهمية عندك، فأنت لست أحد أصدقائنا.

ظهر الاكتئاب في وجه الصياد الداكن بسبب هذه

الملاحظة مما دفع لوسي إلى الضحك بصوت عال. قالت: هيا، لم أقصد ذلك! بالطبع أنت صرت صديقاً ويجب أن تأتي لزيارتنا. والآن عليّ المضي في طريقي، وإلا فإن أبي لن يضع ثقته فيّ لتنفيذ الأعمال بعد الآن. إلى اللقاء.

أجاب وهو يرفع قبعته المكسيكية ذات الحافة العريضة: إلى اللقاء.

استدارت بحصانها البرّي وضربته بسوطها، فانطلق على الطريق الواسع تتبعه سحابة من الغبار.

* * *

استمر الشاب جفرسون هوب في السير مع رفاقه بكآبة وصمت. كانوا ينقبون عن الفضة في جبال نيفادا، وقد عادوا إلى مدينة سولت ليك ليجمعوا رأس مال كافياً لاستخراج المعدن الذي اكتشفوه. كان تركيزه منصَبّاً على العمل مثلهم حتى جاءت تلك الحادثة الأخيرة وحولت تفكيره إلى اتجاه آخر، فرؤية تلك الصبية الجميلة التي كان جمالها في نقاء وغِنى نسمات سييرا حرك مشاعره، وعندما اختفت من أمامه أدرك أن حياته تحولت وأن الفضة لن تكون لها أهمية هذا الموضوع الذي استولى على كل تفكيره. فالحب الذي تفجر في قلبه لم يكن حباً خيالياً مفاجئاً شعر به صبي صغير، بل هو عاطفة حقيقية لرجل ذي إرادة قوية ومزاج مستبدّ اعتاد النجاح في كل ما يضطلع به، وقد أقسم لنفسه أنه لن يفشل في هذا الأمر وسيبذل ما يستطيع من عزم وجهد في سبيل تحقيقه.

في تلك الليلة ذهب هوب لزيارة فيريير، ثم تردد عليه مرات عديدة أخرى حتى بات وجهه مألوفاً في منزل المزرعة. وكان جون قد احتُجز في الوادي واستغرق في عمله فلم تكن عنده فرصة لمعرفة أخبار العالم في الخارج لمدة اثني عشر عاماً الأخيرة، فسرد جفرسون هوب عليه الأخبار بأسلوب استهوى لوسي أيضاً.

كان من روّاد المستكشفين في كاليفورنيا واستطاع أن يقصّ الكثير من الروايات الغريبة عن ثروات تُكتسب وثروات تُفقَد في تلك الأيام الذهبية القاسية، وقد عمل هو نفسه بالاستكشاف وصيد الحيوانات للاتّجار بفرائها ولحمها، وعمل منقّباً عن الفضة وراعياً للماشية، فأينما وُجدت المغامرة كان جفرسون هوب ينطلق بحثاً عنها.

وسرعان ما أصبح صديقاً مفضَّلاً عند المزارع الذي أخذ يتحدث كثيراً عن فضائله، وفي تلك المناسبات كانت لوسي تلتزم الصمت، ولكن ظهر من تورد خدَّيها ولمعان عينيها الفَرِحتين أن قلبها الفتيّ لم يعد ملكها. ربما لم يلحظ أبوها تلك الأعراض، ولكنها لم تمرّ دون أن يلحظها الشاب الذي كسب حبها.

في مساء أحد أيام الصيف جاء هوب يعدو على صهوة حصانه حتى توقف أمام البوابة. وكانت لوسي تقف عند المدخل فأسرعت لتقابله، فرمى باللجام على السور وأسرع إلى الممر المؤدي إلى المنزل، حيث أمسك بيديها وقال وهو

ينظر بلطف إلى وجهها: إنني راحل يا لوسي، لن أطلب منك أن تأتي معي الآن، ولكن هل أنت على استعداد لمرافقتي حين أعود؟

سألته وهي تتورد خجلاً: ومتى سيكون ذلك؟

- بعد شهرين على الأكثر، ثم أعود لآخذك يا عزيزتي. لن يستطيع أحدٌ التفريق بيننا.

سألته قائلة: وماذا عن أبي؟

- لقد وافق بشرط أن نبدأ العمل في المنجم بنجاح، وليس لدي شك في هذا.



رسم جورج هَتْشِنْسون (١٨٩١) George Hutchinson (1891)

همست على استحياء: آه، حسناً، طالما اتفقت أنت وأبي على كل شيء فلم يبقَ ما يقال.

قال بصوت أجش: شكراً لله، لقد تقرر الأمر إذن. إنهم ينتظرونني في الوادي، فإلى اللقاء يا عزيزتي، إلى اللقاء. سأعود بعد شهرين.



رسم رتشارد غوتْشمِت (١٩٠٢) Richard Gutschmidt (1902)

أجبر نفسه على الابتعاد عنها وهو يتكلم، فقفز على الحصان وانطلق مبتعداً بانفعال دون أن ينظر إلى الخلف، كما لو كان خائفاً أن يضعف عزمه لو نظر إلى ما تركه خلفه. أما هي فقد وقفت عند البوابة تنظر إليه حتى اختفى عن نظرها، فدخلت إلى المنزل وهي تشعر بأنها أسعد فتاة في يوتاه.

* * *

الفصل الثالث

حديث مع الزعيم

مضت على رحيل جفرسون وزملائه من مدينة سولت ليك ثلاثة أسابيع، وقد شعر جون فيريير بالحزن كلما فكر في عودة الشاب وفي أنه سيفقد ابنته قريباً، إلا أن وجهها الفَرِح جعله يرضى عن هذا الترتيب أكثر مما كانت ستفعل أي مناقشة أخرى، فقد عقد العزم في صميم قلبه دائماً على أنه لن يدعها تتزوج من المورمون أبداً مهما كانت المغريات. ومهما كانت آراؤه الأخرى عن معتقدات المورمون فإن موقفه من هذه النقطة بالذات لم يتغير، وإن كان قد اضطر إلى الكتمان وعدم الحديث عن هذا الأمر على أية حال، حيث إن التعبير عن رأي يخالف المعتقدات كان أمراً خطيراً في مدينة القديسين في تلك الأيام.

نعم، إنه أمر خطير، خطير لدرجة أن أكثر الرجال ورعاً لم يجرؤوا إلا على الهمس بآرائهم الدينية والخوفُ يتملكهم خشيةَ أن يُساء تفسير شيء مما يقولون فتنزل بهم العقوبة، فضحايا الاضطهاد تحولوا الآن بدَورهم إلى متعسفين، أصبحوا متعسفين من أسوأ الأنواع، فلا محاكم التفتيش

الإسبانية ولا المحاكم الدينية الألمانية ولا الجماعات السرية في إيطاليا كانت قادرة على إقرار تلك النظم الرهيبة التي سيطرت على ولاية يوتاه.

لقد سيطرت على المنطقة منظمةٌ خفيّة غامضة قاسية أثارت الرعب في القلوب، فالرجل الذي وقف في وجه الكنيسة اختفى دون أثر، لم يعرف أحدٌ أين ذهب ولا ما حَلّ به؛ انتظره أولاده وزوجته في المنزل، ولكن الأب لم يعد ليخبرهم بما حدث له وهو بين أيدي قضاته السرّيين.

تعلّم الناس أن الموت مصير أي تصرف أهوج أو كلمة غير مدروسة، فلا عجبَ أن الرجال عاشوا حياتهم في خوف ورعب ولم يجرؤوا على الهمس بالشكوك التي تراودهم ولا حتى في قلب الصحراء.

في البداية استُخدمت القسوة الغامضة فقط ضد المتمردين الذين حاولوا الإساءة إلى العقيدة المورمونية، ولكنها أصبحت سريعاً تُستَخدَم على نطاق أوسع. فأعداد النساء أخذت تتناقص بسبب نظام تعدد الزوجات، وهكذا بدأت الشائعات الغريبة بالانتشار، شائعات عن قتل رجال المهاجرين وعن غارات مسلحة في مناطق لا يدخلها الهنود. كما ظهرت نساء جديدات باستمرار، نساء يبكين ويذبلنَ وعلى وجوههنّ علامات هلع دائم! وتحدّث تائهون في الجبال عن عصابات من رجال مقنعين يتحركون ليلاً دون صوت كالأشباح! ومع الوقت تعززت الحكايات والشائعات بأسماء محددة، وإلى يومنا

هذا فإن ذكر اسم عصابة دانيت أو «الملائكة المنتقمون» أمر مشؤوم يثير الرعب في المزارع المعزولة في الغرب.

لم يعرف أحدٌ أعضاءَ تلك الجماعة المتعسفة، فأسماء المشاركين في تلك الأعمال الدموية التي ارتكبت باسم الدين بقيت سراً، حتى إن صديقك الذي قد تخبره بشكوكك الدينية قد يكون واحداً من أولئك الذين سيأتون ليلاً لتنفيذ العقوبة الرهيبة، فتوجس كل شخص من جاره ولم يُطْلع أحدٌ غيرَه على ما يفكر فيه.

* * *

في صباح أحد الأيام كان جون فيريير في طريقه إلى حقل القمح عندما سمع قرقعة مزلاج، وعندما نظر عبر النافذة رأى رجلاً قوياً متوسط العمر أشقر الشعر يمشي في الممر، فانقبض صدره. لم يكن هذا الرجل سوى بريغهام يونغ، الزعيم العظيم نفسه! ملأ الرعب قلبَه لأنه عرف أن هذه الزيارة لم تكن لتحمل له الخير، فهرع إلى الباب ليرحب بقائد المورمون الذي لقيه ببرود وتبعه إلى غرفة الجلوس بوجه صارم.

قال وهو يجلس وينظر إليه بحدّة: أيها الأخ فيريير، لقد كان المؤمنون الحقيقيون أصدقاء طيبين لك، فقد التقطناك وأنت تائه في الصحراء تكاد تموت من الجوع، وشاركناك طعامنا وقدناك بأمان إلى الوادي المختار، ثم أعطيناك حصة من الأرض وسمحنا لك بأن تصبح غنياً تحت حمايتنا. أليس هذا صحيحاً؟

أجاب جون فيريير: بلى، إنه صحيح.

- ومقابل كل هذا طلبنا منك تنفيذ شرط واحد، هو اعتناق ديننا والالتزام بكل طقوسه. وقد وعدت بالالتزام بها، ولكنك قصرت في تنفيذها كما تقول التقارير.

قال جون فيريير وهو يرفع يديه مجادلاً: وكيف قصرت؟ ألم أدفع للصندوق العام؟ ألم أحضر الصلوات؟ ألم...

سأله يونغ وهو يتلفت حوله: أين زوجاتك؟ لا أرى أيّاً منهن في هذا البيت.

أجاب فيريير: صحيح أنني لم أتزوج، ولكن النساء قليلات وكانت للآخرين مزايا أفضل مني، كما أنني لست رجلاً وحيداً، فمعي ابنتي ترعى شؤوني.

قال قائد المورمون: وقد جئت أتحدث إليك بشأنها، فقد كبرت لتصبح زهرة يوتاه ونالت استحسان الكثيرين من ذوي المكانة العالية.

توجّس جون فيريير خيفة، وأكمل الزعيم: سمعت عنها بعض القصص إلا أنني فضلت عدم تصديقها، قصص عن أنها مخطوبة لشخص مسيحي ليس من ديننا. لا بد أنها مجرد شائعات، فلا أظن أنك ستزوج ابنتك إلا رجلاً من المختارين.

لم يُجِبْ جون فيريير، واستمر بالعبث بعصبيّة بالسوط الذي كان في يده والذي يستخدمه في ركوب الخيل، فمضى الزعيم قائلاً: سيكون هذا الأمر اختباراً لإيمانك، هذا ما اتُّفِق

عليه في مجلس الأربعة المقدس. لن نحرم الفتاة حق الاختيار. ستانغرسون له ابن ودريبر له ابن ويمكنها الاختيار بينهما، فهما شابان غنيان ويتحليان بإيمان خالص.

ظل فيريير صامتاً لبعض الوقت عاقداً حاجبيه، ثم قال أخيراً: امنحنا بعض الوقت، فابنتي صغيرة جداً ولم تكَدْ تبلغ سن الزواج.

قال يونغ وهو يقف: أمامها شهر لتختار، وفي نهاية تلك المدة يجب أن تعطينا رداً.



رسم جورج هَتْشِنْسون (١٨٩١) George Hutchinson (1891)

كان على وشك المغادرة حين التفت بانفعال وعيناه تقدحان شرراً، ثم هدر صائحاً: كان من الأفضل لكما أن تكونا الآن عظاماً متحللة في وادي سييرا بلانكا على أن تحاولا تحدي أوامر الأربعة المقدسين.

ثم حرك يده بشكل فيه تهديد قبل أن يسمع فيريير صوت خطواته الثقيلة على الممر الخشبي.

جلس فيريير وأسند مرفقيه على ركبتيه وهو يفكر بالطريقة التي سيفاتح بها ابنتَه عندما شعر بيد رقيقة على كتفه، فرفع رأسه ورآها تقف بجانبه، وحين ألقى نظرة واحدة على وجهها الشاحب الخائف عرف أنها سمعت كل ما قيل.

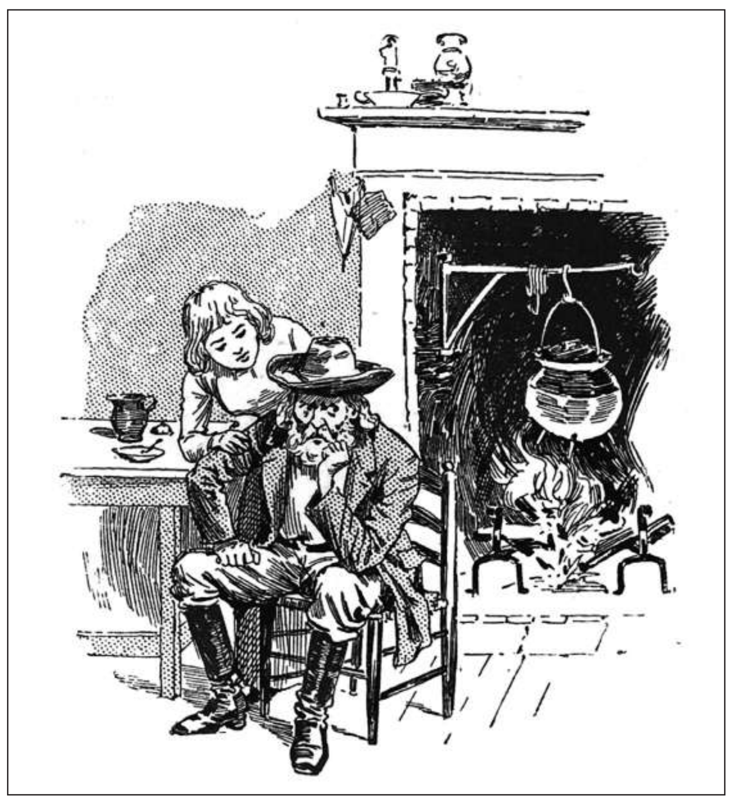
أجابت على نظرته قائلة: لم يكن بيدي حيلة، فقد كان صوته يرنّ في أرجاء المنزل. آه يا أبي، ماذا سنفعل؟

قال وهو يجذبها إليه ويمرّر يده الكبيرة الخشنة على شعرها الكستنائي: لا تخافي، سنحلّ الأمر بطريقة أو بأخرى. لم تضعف مشاعرك نحو ذلك الفتى، أليس كذلك؟

كانت إجابتها الوحيدة تنهيدة وضغطة على يده، فقال: لا، بالطبع لا. رائع، لا أود أن أسمع منك أن مشاعرك نحوه قد خفّت، فهو شاب جيد وأفضل من هؤلاء الناس هنا. لي أصدقاء سيتجهون إلى نيفادا غداً، وسوف أرسل له معهم رسالة أخبره فيها بالمأزق الذي نحن فيه، ومما أعرفه عن ذلك الشاب فإنه سيهرع إلينا بسرعة البرق.

ضحكت لوسي عبر دموعها وقالت: سوف ينصحنا بالحل الأفضل حين يحضر، ولكني قلقة عليك أنت يا أبي، فالمرء يسمع روايات مخيفة عمّا يحدث لأولئك الذين يخالفون أوامر الزعيم، إنهم يلاقون مصيراً مرعباً.

أجاب أبوها: ولكننا لم نعارضه بعد، وعندما نفعل سيكون علينا أن ننتبه لما سيقابلنا من عواصف، أما الآن فنحن في أمان لمدة شهر، وقبل نهايته ينبغي علينا أن نهرب من يوتاه.



رسم جورج هَتْشِنْسون (١٨٩١) George Hutchinson (1891)

- نغادر يوتاه؟!

- ما باليد حيلة.

- ولكن ماذا عن المزرعة؟

- سنجمع ما نقدر عليه من المال ونترك الباقي. ولكي أكون صريحاً معك يا لوسي: ليست هذه هي المرة الأولى التي أفكر فيها بالمغادرة، فأنا لا أحب الخضوع لأي إنسان كما يفعل هؤلاء الناس مع زعيمهم. أنا أمريكي حر ولا أحتمل مثل هذا الخنوع.

- ولكنهم لن يسمحوا لنا بالرحيل.

- انتظري حتى يحضر جفرسون وسوف نتمكن من حل هذا الأمر، أما الآن فلا أريدك أن تقلقي يا عزيزتي. ولا ترهقي عينيك بالبكاء وإلا هرب جفرسون منك عند رؤيتك! لا داعي للخوف، فلا خطر على الإطلاق.

نطق جون فيريير بكلمات المواساة تلك بنبرة واثقة جداً، ولكنها لاحظت كيف أحكم إغلاق الأبواب تلك الليلة بشكل غير معتاد، وأنه نظف بندقيته القديمة التي علاها الصدأ التي كانت معلقة على الجدار في غرفة نومه.

* * *

الفصل الرابع
الهروب من أجل الحياة

في صباح اليوم التالي بعد مقابلة الزعيم المورموني ذهب جون فيريير إلى مدينة سولت ليك وقابل الشخص الذي يعرفه والذي كان متجهاً إلى جبال نيفادا، فائتمنه على رسالته إلى جفرسون هوب، وفيها أخبر الشابَّ بالخطر الوشيك الذي يتهددهم ودعاه إلى العودة السريعة. بعد ذلك شعر بالراحة، فعاد إلى المنزل وقد انشرح صدره.

عندما رجع إلى المزرعة دُهش لمشاهدة حصانين مربوطين في أعمدة البوابة، وازدادت دهشته حين دخل ليجد شابين يجلسان في غرفة جلوسه. كان لأحدهما وجه طويل شاحب وكان يجلس مضطجعاً على الكرسي الهزاز وقدماه مرفوعتان على المدفأة، أما الآخر فشاب غليظ العنق له ملامح منتفخة فظّة، وكان يقف أمام النافذة ويداه في جيوبه وهو يصفر نغمات لحن معروف.

أومأ الاثنان لفيريير حين دخل، وقد استهل الجالس على الكرسي الهزاز المحادثة فقال: لعلك لا تعرفنا. هذا هو ابن دريبر وأنا جوزف ستانغرسون. لقد سافرنا معك في الصحراء

حين ساعدك الله وضمّك إلى الجماعة.

حياهما فيريير ببرود، حيث كان قد خمّن هوية زائرَيه. أكمل ستانغرسون قائلاً: لقد جئنا -حسب طلب أبوَينا- لطلب يد ابنتك لمِن تجده مناسباً لها من بيننا، وبما أن لديّ أربع زوجات فقط بينما للأخ دريبر سبع منهن فأنا أعتقد أنني أَولى منه بابنتك.

صاح الآخر: لا، لا يا أخ ستانغرسون، المسألة لا تتوقف على عدد زوجاتنا بل على العدد الذي نستطيع الإنفاق عليه، وقد وهبني أبي معامله، وهكذا فأنا أغنى منك.

قال الآخر بحرارة: ولكن إمكانياتي المستقبلية أفضل، فحين يموت أبي سأحصل على ساحة الدباغة ومصنع الجلود، ثم إنني أكبر منك شأناً ومكانتي أعلى في الكنيسة.

قال دريبر الشاب وهو يبتسم لانعكاس صورته في المرآة: سيكون على الفتاة تقرير هذا، لنترك لها الاختيار.

وقف جون فيريير في مدخل الغرفة يستمع إلى هذا الحوار وقد تملكه الغيظ وهو يحاول السيطرة على نفسه حتى لا يضرب زائرَيه بالسوط، ثم قال أخيراً وهو يمشي نحوهما: انتبها لما أقول، تستطيعان القدوم حين ترسل ابنتي في طلبكما، وحتى ذلك الوقت لا أرغب في رؤية وجهَيكما هنا ثانية.

حدّق إليه الشابان في ذهول، فهما اعتقدا أن تنافسهما

على طلب يد الفتاة شرف كبير لها ولأبيها!

صاح فيريير قائلاً: أمامكما طريقان للخروج من الغرفة، الباب أو النافذة، فأيَّهما تختاران؟

بدت الوحشية على وجهه الداكن كما ظهر التهديد في شكل يديه النحيلتين، فهَبّ زائراه على قدميهما وسارعا بالهرب، فتبعهما المزارع العجوز إلى الباب وقال بسخرية: أعلماني حين تقرران أيهما تريدان.



رسم جورج هَتْشِنْسون (١٨٩١) George Hutchinson (1891)

صاح ستانغرسون وقد شحب وجهه من الغضب: ستدفع ثمن هذا، لقد تحديت إرادة الزعيم والأربعة الكبار وسوف تقضي ما بقي من حياتك في ندم.

هَمّ بملاحقتهما عندما أمسكت لوسي بذراعه ومنعته، فصاح وهو يمسح العرق عن جبهته: يا لهما من نذلين! أفضّل أن أراك في قبرك يا عزيزتي على أن تكوني زوجة لأحدهما.

قالت بشجاعة: وهذا رأيي أنا أيضاً يا أبي، ولكن سرعان ما سيأتي جفرسون.

- نعم، لن يمضي وقت طويل حتى يأتي، وكلما جاء في وقت أبكر كان أفضل، فأنا لا أعلم ما هي خطوتهم القادمة.

* * *

عرف فيريير أن مكانته وثروته لن تنفعاه، فكثيرون بنفس شهرته ومنزلته اختُطفوا من قبل ومُنحت ممتلكاتهم للكنيسة! كان رجلاً شجاعاً، إلا أنه كان يرتجف حين يفكر في الأهوال الغامضة التي تنتظره. كان قادراً على مواجهة الأخطار المعروفة دون أن يهتزّ له جفن، ولكن هذا الترقب كان مثيراً للأعصاب. أخفى فيريير مخاوفه عن ابنته على أية حال وحاول أن يستخف بالأمر أمامها، ومع ذلك فقد استطاعت أن ترى بوضوح -بعين الحب والاهتمام- أنه كان غيرَ مرتاح.

توقع فيريير أن تصله رسالة تأنيب من يونغ على تصرفه، ولم يكن مخطئاً، رغم أنها جاءت بأسلوب غير متوقع. حين

استيقظ صباح اليوم التالي وجد -لدهشته- ورقة صغيرة مثبّتة إلى غطاء سريره، فوق صدره مباشرة، كانت مكتوبة بخط سميك وفيها هذه الكلمات: "أمامك تسعة وعشرون يوماً لتصحيح ما فعلته، وبعد ذلك..."

كانت تلك النقاط أكثر إثارة للخوف من أي تهديد مباشر، كما أن وصول رسالة التحذير إلى غرفته أثار حيرته الشديدة، لأن خادمه يعيش في مبنى منفصل عن المنزل، والأبواب كانت محكمة الإغلاق.

أخفى فيريير الورقة عن ابنته رغم خوفه منها. كان من الواضح أن الأيام التسعة والعشرين هي ما بقي من الشهر الذي أنذره به يونغ. ما مدى القوة أو الشجاعة اللازمة لمواجهة عدو يملك مثل تلك القوى الغامضة؟ اليد التي ثبّتت تلك الرسالة كانت قادرة على طعنه في قلبه دون أن يعرف ما الذي قتله.

على أن ما حدث صباح اليوم التالي زاد من توتره. كانا قد جلسا لتناول الإفطار عندما أطلقت لوسي صيحة فزع وهي تشير إلى الأعلى، حيث كُتب رقم ٢٨ وسط السقف بخط سيّئ بعصا احترق طرفها على ما يبدو. لم تستطع ابنته فهم الأمر ولم يحاول هو توضيحه، وفي تلك الليلة بقي مستيقظاً وهو يمسك بندقيته للحراسة، ومع أنه لم يرَ شيئاً ولم يسمع شيئاً إلا أن الرقم ٢٧ كان مرسوماً بخط كبير على بابه من الخارج في صباح اليوم التالي.

وهكذا يوماً بعد يوم ومع إشراقة كل صباح كان فيريير

يكتشف أن أعداءه يحافظون على العَدّ. ظهرت الأرقام المشؤومة في بعض الأحيان على الجدران وفي أحيان أخرى على الأرض، ومن حين لآخر كانوا يضعون ملصقاً على باب الحديقة أو على السور. كان الرعب يتملك جون فيريير حين يرى تلك الأرقام، فأضناه القلق وبدت في عينيه نظرة الشخص المطارَد المضطربة. لم يبقَ عنده إلا أمل واحد في الحياة، هو وصول الصياد الشاب من نيفادا.

* * *

تحول الرقم ٢٠ إلى ١٥ ثم إلى ١٠ ولم تصل أي أخبار عن الغائب، واستمرت الأرقام تتناقص ولم يظهر له أثر! كان المزارع العجوز يهرع إلى البوابة كلما سمع صوت حوافر حصان على الطريق وهو يأمل أن تكون المساعدة قد وصلت أخيراً. وعندما تحول الرقم ٥ إلى ٤ ثم إلى ٣ وهَنَتْ عزيمته وفقد كل أمل في الهرب، فقد عرف أنه وحدَه لا حول له ولا قوة، لا سيما مع جهله بالجبال المحيطة بالمستعمرة. وقد صارت الحراسة أكثر صرامة على الطرق، فلم يكن أحد ليستطيع المرور دون إذن من المجلس.

جلس فيريير وحده في مساء أحد الأيام يُمعن النظر في مشكلته ويبحث دون جدوى عن طريق للخلاص، فهذا الصباح ظهر الرقم ٢ على جدار منزله، واليوم التالي هو اليوم الأخير من المهلة. ماذا سيحدث بعدها؟ امتلأت مخيلته بالأوهام الغامضة الرهيبة. وماذا عن ابنته، ما هو مصيرها بعد

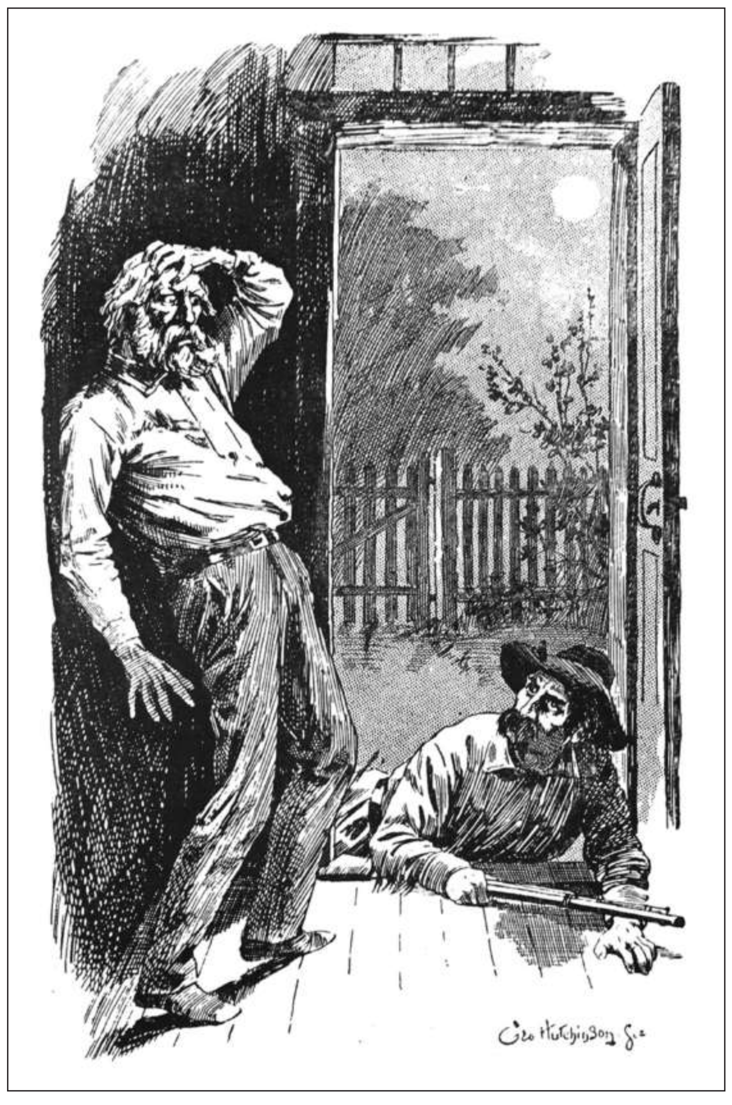
رحيله؟ انهار واضعاً رأسه على الطاولة وأخذ يندب عجزه.

ولكن، ما كان هذا؟ سمع فيريير صوت نبش يقطع الصمت. كان منخفضاً ولكنه كان مميزاً جداً في هدوء الليل. جاء من عند باب المنزل، فتسلل إلى القاعة وأنصت بانتباه كامل. ساد السكون لبضع لحظات، ثم تكرر الصوت المنخفض المكتوم مرة أخرى. كان أحدهم يدق الباب بلطف شديد. أهو واحد من قتلة منتصف الليل جاء لتنفيذ أوامر المحكمة السرية؟ أم أنه يرسم العلامة التي ترمز إلى حلول اليوم الأخير من المهلة؟ شعر جون فيريير بأن الموت السريع سيكون أفضل من القلق الذي يوتر أعصابه ويبعث الخوف في قلبه، فقفز إلى الأمام وسحب المزلاج فانفتح الباب.

ساد الهدوء والسكون المكانَ في الخارج. كانت ليلة رائعة وكانت النجوم تلمع بشدة في السماء، فنظر على امتداد الحديقة الأمامية الصغيرة التي يطوّقها السور والبوابة، لكنه لم يرَ أي إنسان هناك، ولا حتى على الطريق. تنهّد براحة، ثم نظر يميناً ويساراً، وما لبث أن شاهد رجلاً يتمدد على وجهه على الأرض ويقترب منه.

فقد فيريير أعصابه فاستند إلى الجدار واضعاً يده على حنجرته ليخنق رغبته في الصراخ، فأول فكرة خطرت بباله كانت أن ذلك الجسد المسجّى على الأرض كان لشخص ميت أو جريح، ولكنه شاهده يزحف على الأرض ليدخل إلى القاعة بسرعة الثعبان وهدوئه! وما إن صار داخل البيت حتى

هَبّ واقفاً على قدمَيه وأغلق الباب، ورأى المزارعُ المذهول أمامه وجهَ جفرسون هوب القوي الحازم.



رسم جورج هَتْشِنْسون (١٨٩١) George Hutchinson (1891)

شهق جون فيريير وقال: يا إلهي، لقد أخفتني جداً! ما الذي جعلك تأتي بهذه الطريقة؟

قال هوب بصوت أجش: اعطني طعاماً أولاً، فأنا بلا زاد منذ يومين. ثم اندفع يأكل من الخبز واللحم البارد، وهما ما بقي من عشاء مضيفه على الطاولة. التهم جفرسون الطعام بنهم، ثم سأل بعد أن أشبع جوعه: هل تحتمل لوسي الأمر بشكل جيد؟

- نعم، فهي لا تعرف الخطر.

- جيد، إن المنزل مراقَب من كل الجهات، لهذا أتيت زحفاً. ربما يكونون في غاية الدهاء، لكنهم ليسوا بالدهاء الذي يسمح لهم بملاحظة صائد قرود الواشو.

شعر جون فيريير كأنه رجل جديد الآن وقد أدرك أن معه حليفاً مخلصاً، فصافح يد الشاب القوية وضغط عليها بودّ قائلاً: إنك رجل يستحق أن يكون محلّ فخر، فقليلون هم المستعدون للحضور إلى هنا ومشاركتنا الخطر والمصاعب.

أجابه الصياد الشاب: أصبت يا صديقي. حتى أنا، مع أنني أحترمك وأقدرك إلا أنني كنت سأفكر مرتين قبل أن أضع رأسي في عش الدبابير هذا لو لم تكن لوسي معك، فهي سبب وجودي هنا وأنا على استعداد للتضحية بحياتي حتى لا يصيبها مكروه.

- ماذا سنفعل الآن؟

- غداً هو اليوم الأخير، وما لم تتحركا الليلة ستضيعان. معي بغل وحصانان ينتظران عند وادي إيغل. كم معك من المال؟

- ألفا دولار ذهبي وخمسة آلاف من الأوراق النقدية.

- سَيَفي هذا بالغرض، فمعي مثل هذا المبلغ لأضيفه إلى ما معك. يجب أن نتجه إلى كارسون عبر الجبال، ومن الأفضل أن توقظ لوسي ونتحرك على الفور، ولحسن الحظ فإن الخدم لا ينامون داخل المنزل.

* * *

ذهب فيريير ليعدّ ابنته للرحلة المقبلة، وفي هذه الأثناء حزم جفرسون كل ما يمكن أكله في صرة صغيرة وملأ وعاء من الخزف بالماء، لأنه عرف عن تجربة أن آبار الجبال قليلة وتفصل بينها مسافات كبيرة. لم يكد ينتهي من ترتيباته حتى عاد الرجل مع ابنته وقد ارتديا ملابسهما واستعدا للبدء بالرحلة. تبادل الخطيبان تحيات حارة ولكن بشكل سريع، لأن الدقائق كانت غالية وأمامهم الكثير مما يجب فعله.

قال جفرسون هوب بصوت منخفض وبحزم شخص يدرك الخطر الهائل الذي يواجهه ولكنه يقوّي قلبه ليتمكن من تخطيه: يجب أن نبدأ الرحلة على الفور. إن المدخلين الأمامي والخلفي مراقَبان، ولكن لو توخينا الحذر فسوف ننجح في التسلل من النافذة الجانبية لنمشي بعد ذلك عبر الحقول، وما إن نصل إلى الطريق حتى نكون على بعد ميلين فقط من الوادي

حيث ينتظرنا الحصانان، وهكذا فعند شروق الشمس نكون قد قطعنا نصف الطريق عبر الجبال.

سأله فيريير: ماذا لو أوقفونا؟

لمس جفرسون عقب مسدسه الذي يظهر من مقدمة ردائه وقال: لو كان عددهم أكبر منا بكثير فسوف يلقى اثنان أو ثلاثة منهم على الأقل مصيرنا نفسه.

كانت الأنوار داخل المنزل مطفأة كلها. نظر فيريير من النافذة المظلمة إلى الحقل الذي كان ملكه والذي كان على وشك تركه إلى الأبد، إلا أن التفكير في كرامة ابنته وسعادتها تغلّب على أي ندم على ثروته الضائعة. أوحى كل شيء بالسكينة والهدوء، من الأشجار إلى حقول القمح الممتدة الواسعة الهادئة، حتى لَيصعب تخيّل شبح القتل وهو يتوارى فيها. ولكن الوجه الشاحب للصياد والعزم البادي عليه أظهرا أنه رأى أثناء اقترابه من المنزل ما جعله يرضى عن هذا الاتجاه.

حمل فيريير حقيبة الذهب والأوراق المالية وحمل جفرسون هوب المؤن الضئيلة والماء، أما لوسي فقد حملت رزمة صغيرة تحتوي على القليل من ممتلكاتها القيّمة. فتحوا النافذة ببطء شديد وانتظروا حتى مرّت سحابة داكنة جعلت الليلة أكثر إظلاماً، ثم عبروا إلى الحديقة الصغيرة واحداً بعد واحد، فمشوا عبرها بأنفاس متقطعة وأجساد مَحنيّة يتعثرون في خطواتهم حتى وصلوا إلى سياج من الأشجار، فاحتموا به وداروا حوله حتى وصلوا إلى الفجوة التي تفتح على حقل

الذرة. وما كادوا يصلون إلى تلك البقعة حتى أمسك الشاب بالرجل والفتاة وسحبهما إلى الظلال حيث قبعوا جميعاً يرتجفون بصمت.

من حسن الحظ أن حياة هوب في البراري جعلت سَمعه في حدّة سمع الوشَق، فما كاد هو وصديقاه يختبئون حتى سُمع صوت نعيق بومة الجبال المشؤوم على بُعد بضعة أمتار منهم، وقد ردّ عليه في الحال نعيق مماثل من مسافة قريبة، ثم خرج خيال غير واضح لشخص ما من الفجوة التي كانوا يقصدونها وأطلق صيحة الإشارة المشؤومة ثانية، وبعدها ظهر من الظلمة رجل ثان.

قال الأول الذي بدا أنه هو المسؤول: غداً في منتصف الليل، عند سماع صيحة الطائر الليلي ثلاث مرات.

ردّ الآخر قائلاً: حسناً، هل أخبر الأخ دريبر؟

- أخبره بالأمر ودعه يخبر الآخرين. تسعة إلى سبعة!

ردد الآخر: سبعة إلى خمسة! ثم ذهب كل منهما في طريق مختلف.

كانت كلماتهما الختامية إشارة أو كلمة سر. هَبّ جفرسون هوب واقفاً على قدمَيه في اللحظة التي تلاشت فيها أصوات خطوات أقدامهم وساعد رفيقيه للعبور من الفجوة، ثم تقدم الطريق عبر الحقول بأقصى سرعته وهو يسند الفتاة ويكاد يحملها حين تخذلها قوتها ويقول لاهثاً من حين لآخر:

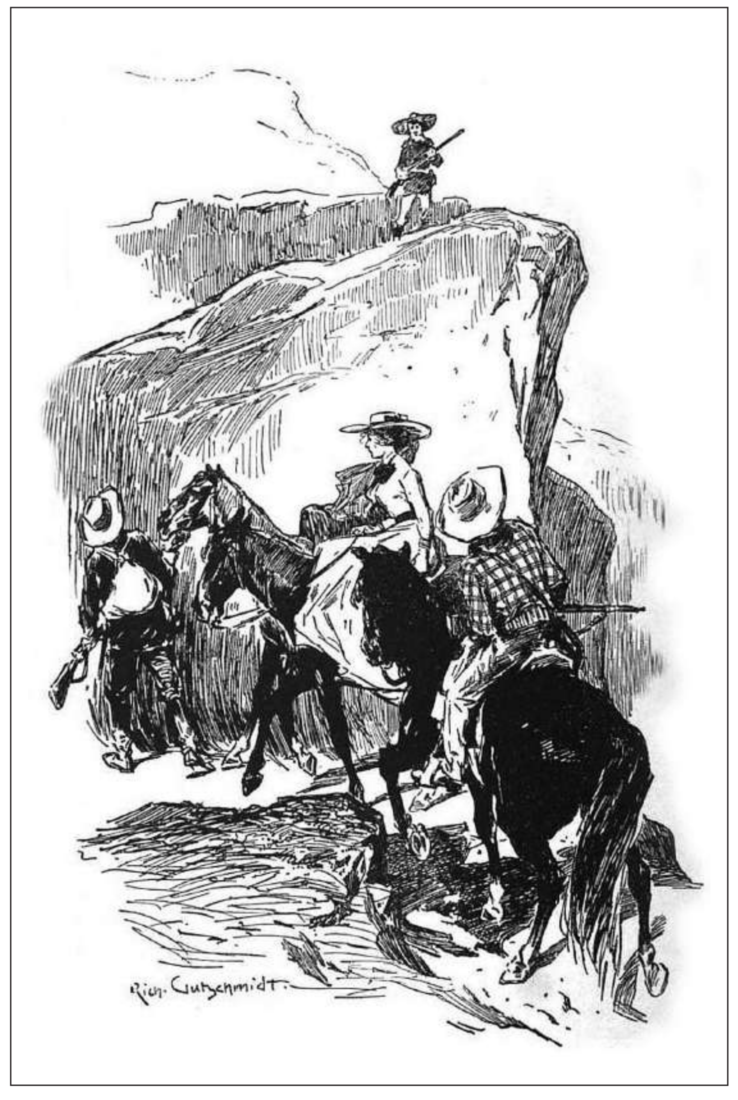
أسرعا، أسرعا، لقد عبرنا خط الحراسة وكل شيء يعتمد الآن على السرعة... أسرعا.

حين وصلوا إلى الطريق المعبد تقدموا بشكل أسرع. لم يقابلوا أحداً إلا مرة واحدة، واستطاعوا حينها التسلل إلى أحد الحقول خوفاً من أن يتعرف عليهم أحد، وقبل الوصول إلى المدينة اتخذ الصياد طريقاً فرعياً ضيقاً يقود إلى الجبال. ثم لاحت فوقهم قمّتان داكنتان مدببتان في الظلام، وكان الممر الواقع بينهما هو منحدر إيغل الذي كانت الدوابّ تنتظرهم فيه.

بغريزة لا تخطئ شقّ جفرسون طريقه عبر الصخور الهائلة وعلى طول مجرى مائي جاف حتى وصل إلى زاوية منعزلة تحجبها الصخور عن النظر، حيث كانت الحيوانات المخلصة مربوطة. ركبت الفتاة على البغل، وركب العجوز فيريير على أحد الحصانين ومعه حقيبة المال، وقاد جفرسون الحصان الآخر عبر الممر الشديد الخطورة والانحدار.

كان الطريق شاقاً لمَن لم يألف مواجهة ظروف الطبيعة في أقسى صورها، فعلى أحد جانبيه جرف مظلم مخيف خطير شديد الانحدار يبلغ عُلوه ألف قدم وتمتد على طول سطحه الوعر أعمدة بازلتية مرعبة! وعلى الناحية الأخرى انتشرت الصخور والأنقاض بشكل فوضوي جعل التقدم مستحيلاً. وبين الاثنين كانت المسارات غير منتظمة؛ ضيقة جداً في بعض الأماكن بحيث اضطروا إلى السير واحداً وراء الآخر، وفي أماكن أخرى وعرة جداً لدرجة أن الفارس الماهر وحده مَن يستطيع اجتيازها.

رغم كل الصعاب والأخطار كانت قلوب الفارّين منشرحة
لأن كل خطوة كانت تزيد المسافة بينهم وبين الاستبداد المطلق



رسم رتشارد غوتْشمِت (١٩٠٢) Richard Gutschmidt (1902)

الذي كانوا يهربون منه. إلا أنهم أيقنوا سريعاً أنهم ما يزالون تحت سلطة القديسين! كانوا قد وصلوا إلى أكثر أجزاء الطريق وحشة وعزلة حين أطلقت الفتاة صرخة خوف وأشارت إلى الأعلى، حيث وقف حارس وحيد على صخرة تطلّ على الطريق وتظهر داكنة منبسطة تحت السماء.

شاهدهم الحارس في نفس الوقت الذي أدركوا وجوده فيه، فدوّت صيحته العسكرية في أرجاء الوادي الضيق الساكن وهو ينادي: من هناك؟

قال جفرسون هوب ويده على البندقية المعلقة في سرج الحصان: مسافرون إلى نيفادا.

استطاعوا رؤية الحارس الوحيد وهو يوجّه مسدسه نحوهم، وسألهم قائلاً: مَنْ أعطاكم الإذن؟

فكّر فيريير بأعلى سلطة في الديانة المورمونية، فأجاب قائلاً: الأربعة المقدسون.

صاح الحارس: تسعة إلى سبعة!

تذكر جفرسون هوب كلمة السر التي سمعها في الحديقة، فأجاب بسرعة: سبعة إلى خمسة.

قال الصوت بالأعلى: يمكنكم المرور.

اتسع الطريق بعد ذلك فتمكنت الأحصنة من الجري، وحين نظروا إلى الخلف استطاعوا رؤية الحارس الوحيد وهو

يستند إلى بندقيته، وعرفوا أنهم عبروا نقطة حدود أراضي المختارين وأنهم استقبلوا أرض الحرية.

* * *

الفصل الخامس
الملائكة المنتقمون

ساروا كل الليل في ممرات ضيقة بين الجبال وفوق طرق غير معبدة تملؤها الصخور، وضلّوا الطريق أكثر من مرة، إلا أن معرفة هوب الوثيقة بالجبال ساعدتهم على العودة إلى الطريق الصحيح مرة أخرى. وحين طلع الصباح كان أمامهم منظر رائع ذو جمال بدائي، فقد طوّقتهم من كل النواحي قمم الجبال المغطّاة بالجليد، تمتد واحدة وراء الأخرى حتى الأفق البعيد.

كانت الجبال شديدة الانحدار على كل جانب، حتى بدت أشجار الصنوبر وكأنها معلقة فوق رؤوسهم وخيل لهم أن أي عصفة ريح قد تدفعها نحوهم بعنف! لم يكن هذا الخوف وَهْماً، فقد امتلأ الوادي القاحل بكثير من الصخور والأشجار التي سقطت بهذه الطريقة، حتى إن صخرة كبيرة اندفعت تَهْدُر أمامهم بصوت تردّدَ صداه في جنبات الوادي الساكن، فجفلت الأحصنة المتعَبة واندفعت تجري.

فيما أخذت الشمس ترتفع شيئاً فشيئاً من الشرق بدأت قمم الجبال تتلألأ الواحدة تلو الأخرى كما لو كانت مصابيح

العيد، حتى توهّجت جميعها بضوء ضارب إلى الحمرة. بعث المشهدُ الرائع البهجةَ في قلوب الفارين الثلاثة وأنعش قواهم، فتوقفوا عند جدول سريع ينحدر بعنف من أحد الأودية الضيقة ليَسقوا أحصنتهم بينما تناولوا إفطاراً سريعاً.

كانت لوسي وأبوها يرحّبان باستراحة أطول، ولكن جفرسون أصرّ على رأيه قائلاً: لا بد أنهم بدؤوا الآن بتتبع أثرنا، فنجاتنا تعتمد على السرعة. حين نصل إلى كارسون نستطيع الراحة لباقي حياتنا.

طوال ذلك اليوم بذلوا جهداً كبيراً في السير عبر الممرات الضيقة بين الجبال، وحين حلّ المساء قدّروا أنهم ابتعدوا عن أعدائهم أكثر من ثلاثين ميلاً، فلما خيّم الظلام اختاروا صخرة بارزةليناموا أسفلها، حيث قدمت لهم الصخور بعض الحماية من الرياح الباردة. هناك تمتعوا ببضع ساعات من النوم، ثم استيقظوا قبل الفجر واستأنفوا السير مرة أخرى.

لم يشاهدوا أي أثر لمُطارد فاعتقد جفرسون هوب أنهم صاروا بعيدين عن تلك المنظّمة الرهيبة التي أصبحوا أعداء لها، ولكنه لم يدرك لأي مدى يمكن لتلك القبضة الحديدية الوصول.

عند منتصف اليوم الثاني من هروبهم تقريباً أوشك مخزونهم الضئيل من المؤن على النفاد. لم يُزعج هذا الأمر الصيّادَ إلا قليلاً لأن في الجبال طرائد يمكن اصطيادها، وكثيراً ما اضطر من قبل إلى الاعتماد على بندقيته من أجل البقاء على

قيد الحياة. فاختار مكاناً منعزلاً مستوراً وجمع بعض الفروع الجافة ثم أشعل فيها النار ليحصل مرافقاه على بعض الدفء، حيث كانوا على ارتفاع خمسة آلاف قدم فوق سطح البحر تقريباً وكان الهواء قارس البرودة. وبعد أن ربط الدواب ودّع لوسي وحمل بندقيته فوق كتفه وانطلق يبحث عن أي طريدة يُلقيها القدر في طريقه. نظر إلى الخلف فرأى العجوز والفتاة يجثمان قرب النار المشتعلة بينما وقفت الحيوانات الثلاثة خلفهم في هدوء، وبعد ذلك حجبتهم الصخور عن نظره.

* * *

مشى مسافة ميلين وتنقّل من واد إلى آخر دون جدوى، وإن كان قد استطاع عن طريق الآثار التي وجدها على جذوع الأشجار وبعض العلامات الأخرى أن يعرف أن في الجوار بعض الدببة. وأخيراً وبعد ساعتين من البحث غير المثمر وبعد أن دفعه اليأس إلى التفكير بالعودة نظر إلى الأعلى فشاهد منظراً أدخل الغبطة إلى قلبه، فهناك على حافة صخرة بارزة فوقه وقف حيوان يشبه الخراف، حيوان مسلح بقرنين عملاقين. تمدد جفرسون على بطنه ثم صوب البندقية بثبات ودقّة وسحب الزناد، فقفز الحيوان في الهواء وترنّح للحظة على حافة الجرف، ثم سقط في الوادي بعنف.

كان من الصعب حمل الحيوان كله لثقله، فقطع وركه وجزءاً من جنبه، ثم حمل غنيمته على كتفه وتعجل بالعودة من حيث أتى لأن الليل كان على الأبواب. ولكنه ما كاد يبدأ

طريقه حتى أدرك صعوبة الموقف الذي كان فيه، فمع رغبته بالصيد تجاوز المنطقة التي كانت مألوفة له ولم يعد من السهل تتبع الطريق الذي سلكه من قبل، فالوادي الذي وجد نفسه فيه تشعّبَ إلى ممرات عديدة كانت متشابهة جداً بحيث كان من المستحيل تمييز أحدها عن الآخر! سار في واحد من تلك الممرات مسافة ميل حتى وصل إلى مجرى مائي كان واثقاً أنه لم يرَه من قبل، فاقتنع أنه سلك الاتجاه الخطأ، فعاد وسار في ممر آخر، ولكنه وصل إلى النتيجة ذاتها.

كان الليل قد بدأ يخيّم بسرعة على المكان، وكان الظلام قد حلّ تقريباً حين وجد نفسه أخيراً في أحد الممرات المألوفة، وحتى في ذلك الوقت لم يكن من السهل الاستمرار في السير على الطريق الصحيح لأن القمر لم يكن قد ارتفع بعدُ وكانت المنحدرات العالية على جانبَيه تزيد من شدة الظلام. أخذ جفرسون يترنح تحت ثقل حمله ومن فرط التعب والإجهاد، ولكنه حافظ على عزمه بالتفكير في أن كل خطوة يخطوها تُقربه من لوسي وأنه يحمل معه زاداً يكفيهم لبقية الرحلة.

وصل أخيراً إلى مدخل الممر الذي تركهم فيه، فقد استطاع تمييز المنحدرات المحيطة به رغم الظلام. وفكر في أنهما ينتظرانه بقلق بلا شك، لأنه غاب عنهما نحواً من خمس ساعات. وبسبب السعادة التي يشعر بها وضع يده على فمه وأطلق صيحة ردد الوادي الضيّق صداها كإشارة على وصوله، ثم صمت وأخذ ينصت بانتظار سماع الرد، ولكنه لم يسمع إلا صدى صيحته التي قرقعت في الوادي الضيق الموحش

الكئيب الشديد الانحدار، تردد صداها مرات لا تُعَدّ. صاح ثانية بصوت أعلى من المرة الأولى، ومرة أخرى لم يصله رد صديقيه اللذين تركهما منذ وقت قصير، فتملكه خوف غامض وأسرع إلى الأمام بذعر، ومع انفعاله ألقى الطعام الثمين على الأرض.

حين انعطف رأى بوضوح المكانَ الذي كان قد أشعل فيه النار، حيث بقيت كومة من الرماد المتوهج، ولكن كان من الواضح أن أحداً لم يهتم بالنار منذ غادر، ولا زال الصمت الرهيب يخيم على المكان. بعد أن تحولت مخاوفه إلى حقيقة أسرع متقدماً فلم يجد أي كائنات حية بالقرب من بقايا النار، لا الحيوانات ولا الرجل ولا الفتاة! اختفوا جميعاً! تحقّق أن مصيبة مفاجئة رهيبة وقعت أثناء غيابه، مصيبة حلّت بهم جميعاً لم تترك وراءها أثراً.

صُدم جفرسون هوب وأصابه الذهول من هَول هذه النكبة، فشعر برأسه يدور واضطر لأن يستند على بندقيته حتى لا يقع. لكنه كان رجلاً عملياً، فاستعاد رباطة جأشه بسرعة بعد لحظة الضعف المؤقت تلك، فسحب من النار التي خبا لهيبُها قطعةَ خشب لم تُستهلك تماماً ونفخ فيها حتى اشتعلت من جديد، وراح يتفحص المعسكر الصغير على ضوئها.

امتلأت الأرض بآثار لحوافر أحصنة، مما يدل على أن مجموعة كبيرة من الرجال الذين كانوا على صهوات جيادهم تغلبوا على الرجل وابنته ثم اتجهوا بعد ذلك إلى مدينة سولت ليك حسبما يظهر من الآثار. ولكن هل حملوا معهم رفيقَيه؟

كاد جفرسون هوب يُقنع نفسه بأنهم فعلوا ذلك ولا ريب، ثم وقعت عيناه فجأة على شيء أرعبه بشدة، فبالقرب من أحد جوانب المعسكر رأى كومة من التراب الأحمر التي لم تكن هناك من قبل. لم يشكّ أنها قبر حُفِر حديثاً، وعندما اقترب منها رأى عصا مغروسة في التراب وقد حُشيت في أحد شقوقها ورقة كُتب عليها:

جون فيريير

نزيل مدينة سولت ليك سابقاً

مات في الرابع من أغسطس سنة ١٨٦٠



رسم رتشارد غوتْشمِت (١٩٠٢) Richard Gutschmidt (1902)

لقد رحل الرجل العجوز القوي الذي تركه قبل قليل، وهذا هو قبره! أخذ جفرسون هوب يتلفت حوله بهياج، ولكنه لم يجد أي أثر لأي قبر آخر. لقد أخذوا معهم لوسي إذن، ولعلهم سيزوجونها كما كان مقدراً لها منذ البداية. حين تحقق الشاب أن هذا هو مصيرها المحتوم وأنه لن يستطيع إنقاذها منه تمنى لو أنه يرقد بجوار الرجل العجوز في مثواه الأخير الصامت المريح.

ولكن روحه الوثّابة نفضت عنه ذلك الخمول الذي ولّده شعوره باليأس، فحتى لو لم يستطع فعل شيء فبإمكانه على الأقل تكريس بقية حياته للانتقام، فإلى جانب تمتعه بالصبر والمثابرة كان يتميز بقدرة هائلة على الاحتفاظ بروح الانتقام لوقت طويل، وهي عادة تعلمها من الهنود الذين عاش بينهم.

وقف بجوار النار المهجورة وأخذ يفكر بأن الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يطفئ نار حزنه هو القصاص من أعدائه بيديه. وهكذا قرر جفرسون هوب أن يكرس إرادته القوية وطاقته التي لا تنضب لهذا الغرض وحده، فعاد بوجه شاحب مكتئب إلى حيث ترك الطعام، وبعد أن أذكى النارَ شوى ما يكفيه لبضعة أيام، ورغم تعبه أعدّ نفسه للسير عائداً عبر الجبال مقتفياً أثر «ملائكة الانتقام».

* * *

على الرغم من إرهاقه وتقرح قدميه مشى لمدة خمسة أيام عبر الممرات الضيقة التي اجتازها من قبل على ظهر

الحصان، وكان إذا حلّ الليلُ استلقى بين الصخور مقتنصاً بضع ساعات من النوم، ثم يستأنف طريقه قبل الفجر.

في اليوم السادس وصل إلى وادي إيغل، وهو المكان الذي بدؤوا منه رحلتهم الشؤومة. من ذلك المكان وقف يطلّ على موطن القديسين. كان يشعر بالإرهاق والإجهاد، فاستند على بندقيته وهزّ يده النحيلة بعنف مهدداً المدينة التي رآها أمامه على البعد. وبينما كان ينظر إليها لاحظ أعلاماً في بعض الشوارع الرئيسية، وفيما كان ما يزال يفكر في معنى هذا الأمر سمع صوت حوافر ورأى رجلاً على صهوة حصان يتجه نحوه، وعندما اقترب عرفه جفرسون. كان مورمونياً اسمه كاوبر، نقل له في الماضي أشياء كثيرة فتوثقت الصلة بينهما، فتقدم منه ليحدثه أملاً في معرفة مصير لوسي.

قال: أنا جفرسون هوب، هل تذكرني؟

نظر إليه المورمونيّ بذهول واضح، فقد كان من الصعب حقاً التعرف على الصياد الشاب المشهور بحسن هندامه بعدما آلَ إلى هذه الصورة، صورة رجل رثّ الملابس شاحب الوجه بعينين شرستين هائجتين.

وما إن تأكد من هويته حتى تحولت دهشة الرجل إلى قلق، فهتف قائلاً: أنت مجنون لحضورك إلى هنا، ولو رآني أحدٌ أتحدث إليك فسوف تكون حياتي هي الثمن، فهم يسعون وراءك لمساعدتك جون فيريير على الفرار.

قال هوب بجرأة: أنا لا أخافهم، فلا تلق بالاً يا كاوبر،

لكنك تعرف عن الأمر بالتأكيد، وأنا أناشدك بكل ما هو عزيز على قلبك أن تجيبني عن بعض الأسئلة. لقد كنا دوماً أصدقاء، فأرجو أن لا ترفض الإجابة.

سأله المورمونيّ بانزعاج: حسناً، ماذا تريد؟ أسرِعْ فللصخور آذان وللأشجار عيون.

- ماذا حلّ بلوسي فيريير؟

- لقد تزوجت دريبر الشاب ليلة أمس... ماذا أصابك؟ تمالك نفسك يا رجل، تمالك نفسك! إنك تبدو شاحباً كالأموات.

تهاوى هوب من الصدمة فاضطر إلى الجلوس على الحجر الذي كان يستند عليه، ثم قال بضعف: لا تهتم لأمري. أتقول إنها تزوجت؟

- تزوجت بالأمس، وهذا هو سبب تعليق الأعلام. وقد جرى جدال بين ابن ستانغرسون وابن دريبر، كل منهما يصرّ على أنه أحق بالزواج بها. كان كلاهما في المجموعة التي تبعتكم، وقد أطلق ستانغرسون النار على أبيها فبدا أن حجته هي الأقوى. ولكن عندما ناقشوا الأمر في المجلس كانت جماعة دريبر أقوى فأعطاها له الزعيم. ولكني أخشى أن أيّاً منهما لن يحظى بها لوقت طويل على أية حال، فقد رأيت الموت في عينيها بالأمس. إنها شبحٌ أكثر منها امرأة... آه، هل ستنطلق الآن؟

هَبّ جفرسون هوب واقفاً بوجه متصلب كأنما قُدَّ من صخر، وقد ارتسمت على وجهه ملامح التصميم والقسوة ولمعت عيناه ببريق مخيف، فسأله المورموني: إلى أين أنت ذاهب؟

قال: لا تهتم. ثم حمل بندقيته على كتفه ونزل يمشي في الممر الضيق حتى دخل في أعماق الجبال، إلى الأماكن التي تعيش فيها الوحوش الضارية، فلم يعد بينها من هو أشد عنفاً وأكثر خطورة منه.

* * *

تحققت توقعات المورموني. سواء أكان السبب هو الطريقة الرهيبة التي مات بها أبوها أمام عينيها أم كان ذلك من تأثير زواجها البغيض الذي أُرغمت عليه، فالمسكينة لوسي لم تحتمل ما حدث، فذبلت حتى ماتت ولمّا ينقَضِ على زواجها شهر واحد. أما زوجها السكّير (الذي لم يتزوجها إلا طمعاً في ممتلكات جون فيريير) فلم يحزن لوفاتها كثيراً، وإن كانت زوجاته الأخريات قد أقمنَ الحداد عليها وجلسنَ معها في الليلة التي سبقت الدفن على عادة المورمون.

كُنّ مجتمعات حول النعش في الساعات الأولى من النهار عندما فُتح الباب بعنف ودخل إلى الغرفة رجل خشن المنظر رث الثياب. ودون أن ينطق بكلمة أو ينظر إلى النساء المذعورات مشى باتجاه الجثمان الشاحب الساكن الذي كان فيما مضى جسد لوسي فيريير المُفعم بالحياة. مال عليها ولمس

جبينها البارد بشفتيه بوقار، ثم أمسك يدها ورفعها ليأخذ خاتم زواجها من إصبعها وهو يُقسم بعنف: لن تُدفَن وهذا في إصبعها.

ثم قفز واختفى قبل أن يتمكن أحد من إطلاق إنذار. كان ما حدث قصيراً جداً وفي غاية الغرابة، بحيث كان من الصعب على من شهده أن يصدقه أو يُقنع أحداً به لولا اختفاء الخاتم من إصبعها، كان ذلك هو الدليل الوحيد على ما حدث.

❋ ❋ ❋

أمضى جفرسون هوب عدة أشهر في الجبال، وكان يعيش حياة بدائية غريبة ويقوّي في قلبه نزعة الانتقام العنيفة



رسم جورج هَتْشِنْسون (١٨٩١) George Hutchinson (1891)

التي تملكته. وانتشرت الأقاويل في المدينة عن شخص غريب شوهد وهو يتجول في الضواحي خلسة وقيل إنه يسكن ممرات الجبال الضيقة الموحشة، وفي أحد المرات اخترقت رصاصةٌ نافذةَ منزل ستانغرسون لتصطدم بالجدار على بعد قدم منه، وفي مناسبة أخرى سقطت صخرة هائلة عن جرف كان دريبر يسير تحته وكادت تقتله. ولم يمض وقت طويل حتى اكتشف الشابان سبب تلك المحاولات لقتلهما، فقادا حملات كثيرة داخل الجبال لقتل عدوّهما، ولكن بلا جدوى، فاتخذا بعض الإحتياطات الوقائية. امتنعا عن السير وحدهما ووضعا حراسة على منزليهما، وبعد فترة شعرا بالراحة بعدما توقفت أخبار منافسهما فظنّا أن الزمن أنساه رغبته في الانتقام.

لكن الذي صنعه الزمن بهوب غير ذلك، فقد زاد من رغبته في الانتقام وليس العكس. فمع أن عقل الصياد كان ذا طبيعة صلبة لا تلين وكانت فكرة الانتقام قد سيطرت كلياً عليه بحيث لم تترك مكانا لأي مشاعر أخرى، إلا أنه كان عملياً على أية حال، وقد عرف سريعاً أنه لن يحتمل الضغط المستمر الذي يفرضه على جسمه القوي الذي قد يخذله لو استمر على ذلك المنهج. فالنوم في العراء وافتقاد الطعام الصحي كانا يضعفانه، وماذا لو أنه مات كالكلب بين الجبال، ماذا سيحل بانتقامه عندئذ؟ كان ذلك المصير في انتظاره لو أصرّ على الاستمرار، فعاد مُكرَهاً إلى مناجم نيفادا القديمة ليعمل على تحسين صحته ويجمع من المال ما يسمح له بتعقب أعدائه دون حرمان.

كان في نيته أن يغيب سنة واحدة على أقصى تقدير، ولكن ظروفاً غير متوقعة منعته من ترك المناجم لما يقرب من خمس سنوات. على أن ذكرى الظلم الذي تعرض له وشهوة الانتقام لم تكن في نهاية تلك المدة أقلَّ حدةً من تلك الليلة التي لا تُنسى، الليلة التي وقف فيها على قبر جون فيريير. وهكذا عاد إلى مدينة سولت ليك متنكراً منتحلاً اسماً مزيفاً.

لم يهتم بما يمكن أن يحدث له طالما أنه سيتمكن من تحقيق العدالة كما يراها، ولكنه وجد أخباراً سيئة بانتظاره، فقد وقع انشقاق ديني في الكنيسة قبل عدة أشهر وثار بعض شباب الأعضاء ضد سلطة الكبار، مما أدى إلى انسحاب عدد من الناقمين الذين تركوا يوتاه وتحولوا إلى المسيحية، ومن هؤلاء دريبر وستانغرسون، ولم يعرف أحدٌ أين ذهبا. قالت الشائعات إن دريبر حول جزءاً كبيراً من ممتلكاته إلى أموال نقدية وإنه غادر المدينة وهو رجل غني، فيما كان رفيقه ستانغرسون فقيراً بالمقارنة به، ولم يعثر على أي دليل يقوده إلى مكانهما الجديد.

كان يمكن لكثيرين أن يستسلموا أمام هذه العقبة مهما كانت رغبتهم في الانتقام قوية، ولكن جفرسون هوب لم يتزحزح قط، فسافر معتمداً على المال القليل الذي جمعه وتنقل في أنحاء الولايات المتحدة بحثاً عن أعدائه، ومرت سنوات حتى شابَ شعره وهو ما يزال يبحث عن طريدته وكأنه كلب بوليسي تتملك عقلَه فكرة واحدة كرّس لها حياته. وفي النهاية أثمرت مثابرته.

لم تكن سوى لمحة خاطفة لوجه يقف في نافذة، عرف منها أن طريدته في كليفلاند بأوهايو، فرجع إلى محل سكنه الكئيب وقد اكتملت في ذهنه خطة الانتقام. ولكن لسوء حظه فإن دريبر لاحظه عندما نظر من النافذة، ويبدو أنه عرفه وقرأ نيّة القتل في عينيه فأسرع إلى الشرطة مصطحباً ستانغرسون (الذي كان قد صار سكرتيره الخاص) وشرح لهم أن حياتَيهما في خطر بسبب كراهية وغَيرة منافس قديم على الزواج! في تلك الليلة أُوقِف جيفرسون هوب، ولم يستطع العثور على شخص يكفله فبقي في الحجز عدة أيام، وعندما أُفرج عنه وجد منزل دريبر مهجوراً وعلم أنه سافر مع سكرتيره متجهَين إلى أوروبا.

أُحبِط مسعاه مرة ثانية، ومرة أخرى أيضاً دفعته كراهيته وعزيمته إلى الاستمرار في المطاردة. فعمل فترة وفّر فيها المال لرحلته المرتقَبة، ثم سافر إلى أوروبا فتتبع آثار أعدائه من مدينة إلى أخرى وهو يمارس أعمالاً متواضعة لتوفير نفقات السفر، ولكنه كان دائماً متأخراً عن طريدتَيه، فحين وصل إلى سينت بطرسبرغ كانا قد رحلا إلى باريس، وحين تبعهما إليها عرف أنهما رحلا للتوّ إلى كوبنهاغن، ثم غادراها إلى لندن حيث نجح في اللحاق بهما أخيراً.

أما ما حدث في لندن فلا نستطيع أن نقدم لكم أفضل من رواية الصيّاد العجوز نفسه كما سُجِّلت في مذكرات الدكتور واطسون التي تقرؤونها الآن.

* * *

الفصل السادس
تكملة ذكريات
الدكتور جون واطسون

لم تخالط مقاومةَ سجيننا العنيفة أيُّ نزعة كراهية تجاهنا، فعندما وجد نفسه عاجزاً عن المقاومة ابتسم بشكل دمث وعبّر عن أمله في أن لا يكون قد سبب الأذى لأي منا أثناء الشجار، ثم قال مخاطباً شيرلوك هولمز: أعتقد أنك ستأخذني إلى مركز الشرطة. إن عربتي واقفة أمام الباب، فلو حللتَ وثاق ساقيّ سأنزل إليها بنفسي، فأنا لم أعد خفيفَ الوزن لتحملوني كما كنت في الماضي.

تبادل غريغسون وليستراد النظرات كما لو كانا يظنان أن في اقتراحه قدراً من الوقاحة، ولكن هولمز وافق على طلبه وفَكّ المنشفة التي كنا قد ربطناها حول ساقَيه.

وقف السجين على قدميه وبسط ساقيه وكأنه يؤكد لنفسه أنه أصبح حراً مرة أخرى، وأذكر أنني فكرت وأنا أنظر إليه أن من النادر أن يرى المرء شخصاً أكثر قوة من هذا الشخص، كما حمل وجهه الداكن الذي لوّحته الشمس من التصميم

والطاقة ما يفوق قوته البدنية.

قال وهو يحدّق إلى زميلي في السكن بإعجاب واضح: لو كان مقعد رئيس الشرطة فارغاً لكنت أنت الرجل المناسب له باعتقادي، فالطريقة التي تتبعت فيها أثري تدعو إلى الإعجاب.

قال هولمز للمحقّقَين: أرجو أن تأتيا معنا.

قال ليستراد: أستطيع أن أقود بكم العربة.

- جيد، ويمكن لغريغسون أن يجلس معنا في الداخل، وأنت أيضاً يا دكتور، فبعد الاهتمام الذي أبديته بالقضية يمكنك البقاء معنا أيضاً.

وافقت بسرور. ونزلنا الدرَج معاً فلم يبذل سجيننا أي محاولة للهروب، بل دخل إلى عربته بهدوء فتبعناه، بينما ركب ليستراد مكان السائق وحثّ الحصان على السير فأوصلنا إلى وجهتنا في وقت قصير، وهناك اتجهنا إلى غرفة صغيرة حيث سجّل ضابط شرطة اسم سجيننا واسم الرجلين المتهَم بقتلهما.

كان الضابط جامد الملامح بارد الأعصاب ينفّذ واجبه بشكل آليّ ممل، وقال: سوف يُعرض السجين أمام القاضي خلال أسبوع. والآن، هل لديك ما تودّ قوله يا سيد جفرسون هوب؟ لكن يجب أن أحذرك وأخبرك بأن كلماتك ستسجَّل وقد تُستخدَم ضدك في المحاكمة.

قال السجين بهدوء: لديّ الكثير لأقوله.

سأله الضابط قائلاً: أليس من الأفضل تأجيل اعترافك للمحاكمة؟

أجاب: قد لا أحاكَم أبداً. لا، لا داعي لهذا الخوف الظاهر على وجوهكم، فليس الانتحار هو ما أفكر به.

ثم حوّل عينيه الداكنتين القويتين إليّ وسألني: هل أنت طبيب؟

أجبته قائلاً: نعم.

قال بابتسامة وهو يشير بمعصميه المقيدين إلى صدره: فلتضع يدك هنا إذن.

صنعت ذلك، فلاحظت على الفور خفقات غير عادية وغير منتظَمة داخل صدره. بدت جدران صدره وكأنها تهتز وترتعش، وفي سكون الغرفة استطعت أن أسمع صوت طنين وأزيز يصدر منه.

صحت قائلاً: عجباً! إنك تعاني من تمدد في الشريان الأورطي.

قال بهدوء: هذا ما يسمّونه. لقد راجعت طبيباً في الأسبوع الماضي فأخبرني أنه أوشك على الانفجار. كان الحال يزداد سوءاً لسنوات، فقد أصبت به أول مرة بسبب الإجهاد الشديد وسوء التغذية وأنا أتجول بين جبال سولت ليك الأمريكية. لقد أنجزت ما عليّ عمله فلا يهمني إن كنت سأموت قريباً، على أنني أودّ أن أقدم تبريراً لأفعالي قبل موتي، فلا أريد أن

يتذكرني الناس كأي قاتل مجرم.

تناقش الضابط والمفتشان سريعاً إن كان من المستحسن السماح له برواية حكايته، وسألني أحدهم قائلاً: أتعتقد أن الخطر على حياته قريب أيها الطبيب؟

أجبت قائلاً: بالتأكيد.

قال الضابط: في هذه الحالة أرى من واجبنا سماع أقواله الآن. لك الحرية يا سيدي في قَصّ روايتك، ولكنني أحذرك ثانية من أنها سوف تُسجَّل.

قال السجين وهو يُتبع القولَ بالفعل: سأجلس بعد إذنكم، فإن تمدد الأوعية هذا يجعلني أشعر سريعاً بالتعب، كما أن المشاجرة التي اشتبكنا بها منذ نصف ساعة زادت الأمر سوءاً. أنا على حافة القبر ولا يوجد أي احتمال لأن أكذب عليكم، فكل كلمة سأخبركم بها هي الحقيقة كاملة، ولا يهمني كيف ستستخدمونها.

بهذه الكلمات اضطجع جفرسون هوب في كرسيه وبدأ بسرد الإفادة المميزة التالية. تكلم بهدوء وبشكل منظم كما لو كانت الأحداث التي يرويها عادية، وأستطيع أن أضمن دقّة الرواية المرفقة لأنني اطلعت على دفتر ليستراد الذي دوّن كل كلمة نطق بها السجين.

* * *

قال: لا يهمكم كثيراً أن تعرفوا سبب كراهيتي لهذين

الرجلين، يكفي أنهما كانا مسؤولين عن موت شخصين، رجل وابنته، وبسبب جريمتهما كان يجب أن يموتا، ولكن كان مستحيلاً إدانتهما في أي محكمة بعد الفترة الزمنية الطويلة التي مضت على جريمتهما، فقررت أن أكون القاضي والمحلَّفين ومنفذ الحكم في آن واحد. وأحسب أن أيّ شخص منكم كان سيفعل مثلما فعلت لو وجد نفسه مكاني وكان عنده من الرجولة ما يكفي.

تلك الفتاة التي أتحدث عنها كانت ستتزوجني قبل عشرين عاماً، ولكنها أُرغمت على الزواج بذلك المدعو دريبر، فانفطر قلبها وماتت بسبب ذلك الزواج. فأخذتُ خاتم زواجها من إصبعها بعد موتها وأقسمت أن يكون الخاتم آخرَ ما ينظر إليه وهو يموت وأن تكون آخر أفكاره عندئذ عن الجريمة التي سيموت بسببها. حملت الخاتم معي وتبعت الرجل وشريكه عبر قارتين حتى أمسكت بهما. ظنّا أنهما يستطيعان الهرب مني، ولكنهما لم يستطيعا. لقد هلكا على يدي، وكان هذا كل ما أرغب فيه وأتمناه.

كانا ثريَّين وكنت فقيراً، فلم يكن من السهل عليّ تتبعهما. حين وصلت إلى لندن كنت مفلساً ورأيت أنني يجب أن أعمل، وكانت قيادة الخيل وركوبها من الأشياء التي تعودت عليها حتى صارت عندي بسهولة المشي، فتقدمت لصاحب أحد مكاتب تأجير عربات الأجرة، وسريعاً قبلوا توظيفي، وكان عليّ إعطاء المالك مبلغاً من المال كل أسبوع ويمكنني بعد ذلك الاحتفاظ بالباقي أيّاً كان. وكان من النادر أن يبقى

الكثير، ولكني نجحت في الاستمرار بشكل ما.

كان أصعب ما عليّ فعله هو التعرف على الطرق، فمن بين كل المتاهات التي شيّدها البشر أعتقد أن هذه المدينة هي الأكثر إثارة للارتباك والحيرة! ولكني احتفظت بخريطة بجانبي على أي حال، وما إن عرفت أماكن الفنادق الرئيسية ومحطات القطار حتى نجحت في عملي بشكل جيد.

مضى بعض الوقت دون أن أعرف مكان إقامة الرجلين، ولكني تقصيت وتحريت حتى عثرت عليهما أخيراً. كانا يقيمان في نُزُل صغير في كامبرويل، هناك على الجانب الآخر من النهر. عندما عثرت عليهما عرفت أنهما أصبحا تحت رحمتي، وكنت قد أطلقت لحيتي فلم يبق مجال لأن يتعرفا عليّ. نويت أن أتبع أثرهما حتى تسنح لي الفرصة، وكنت قد قررت ألّا أدعهما يفلتان مني مرة أخرى.

ولكنهما أوشكا على الإفلات رغم ذلك، فقد تبعتهما إلى كل مكان ذهبا إليه في لندن، في بعض الأحيان كنت أتبعهما في عربتي وأحياناً أخرى على قدمي، وإن كانت الطريقة الأولى أفضل لأنهما لن يستطيعا الهرب مني عندها. ولم أعمل إلا في الصباح الباكر أو في وقت متأخر من الليل، فبدأت أتخلف عن دفع ما عليّ لمديري، لكني لم أهتم بذلك طالما كنت سأنجح في الإمساك بالرجلين اللذين أردتهما.

ولكنهما كانا ماكرَين، ولعلّهما شكّا في أن أحداً ما يلاحقهما، لأن أياً منهما لم يخرج أبداً بمفرده ولم يغادرا

النزُل قَطّ بعد منتصف الليل. تبعت خطواتهما كل يوم على مدار أسبوعين ولم أشاهدهما يفترقان ولو لمرة واحدة. كان دريبر ثملاً معظم الوقت، ولكن ستانغرسون لم يغفل عنه ولو للحظة. راقبتهما في كل الأوقات فلم أجد أي فرصة للنيل منهما، ولكني لم أيأس لأن شيئاً أنبأني بأن الساعة قد حانت، وخفت فقط أن ينفجر هذا الشيء في صدري قبل أن أنهي عملي.

أخيراً وفي إحدى الليالي كنت أسير ذهاباً وإياباً في توركاي تراس (وهذا هو اسم الشارع الذي يقطنون فيه) حين رأيت عربة تقف أمام باب النزُل، وبعد قليل نُقلت إليها بعض الحقائب وتبعها دريبر وستانغرسون، ثم انطلقت العربة. أخذت أحث حصاني بالسوط ليسرع حتى لا يغيبا عن نظري وأنا منزعج جداً لانني خشيت أن يغيّرا مكان سكنهما، وحين نزلا في محطة إيستون تبعتهما إلى الرصيف، فسمعتهما يسألان عن قطار ليفربول، وأجابهما الحارس قائلاً إن قطاراً انطلق إليها لتوّه ولن ينطلق القطار القادم قبل عدة ساعات.

بدا أن ذلك ضايقَ ستانغرسون، أما دريبر فظهر عليه الفرح وليس الاستياء. كنت قد اقتربت منهما كثيراً وسط الزحام فاستطعت سماع نقاشهما كلمة كلمة. قال دريبر إن عليه الاهتمام بمسألة خاصة صغيرة وطلب من الآخر أن ينتظره قائلاً إنه سيعود إليه سريعاً. اعترض رفيقه وذكّره بأنهما قررا من قبل ألّا يفترق أيٌّ منهما عن صاحبه، فأجابه دريبر بأنها مسألة دقيقة وأن عليه الذهاب وحده.

لم أستطع سماع رد ستانغرسون على هذا الكلام، ولكن دريبر انفجر غضباً وذكّره بأنه مجرد خادم مأجور وأنه لا يُفترَض به أن يُملي عليه أفعاله. وساومه السكرتير على أن ينضمّ إليه في فندق هوليديز إذا لم يلحق بالقطار الأخير، فردّ عليه دريبر قائلاً إنه سيعود إلى رصيف المحطة قبل الساعة الحادية عشرة، ثم غادر المحطة.

حانت اللحظة التي انتظرتها أخيراً، فقد صار أعدائي في متناول يدي. فحين كانا مجتمعَين كان كل منهما يحمي الآخر، أما وقد افترقا فقد أصبحا تحت رحمتي، ولكني لم أتصرف بتهور لا داعي له. كنت قد وضعت خطة بالفعل، فالمنتقم لا يشعر بالرضا إلا إذا أتاح لخصمه فرصةً يدرك فيها هوية مَن صرعه وسبب العقوبة التي نزلت به. وقد رتبت خطتي بحيث تتاح لي الفرصة لأجعل الرجل الذي ظلمني يدرك أن ذنبه القديم جاء يسعى وراءه.

قبل عدة أيام تصادف أن رجلاً كان يعمل في صيانة بعض البيوت في شارع بريكستون أوقع مفتاحَ أحدِها في عربتي، ومع أنه طلبه في آخر اليوم وتسلمه إلا أنني استطعت عمل طبعة له ثم نَسْخه قبل أن أرجعه إليه. بهذه الطريقة استطعت الحصول على وسيلة للدخول إلى مكان واحد على الأقل في هذه المدينة الكبيرة أستطيع فيه أن أكون حراً دون أن يقاطعني أحد، أما كيف سأحمل دريبر على الذهاب لذلك المنزل فتلك هي المشكلة الصعبة التي كان عليّ حلها.

سار دريبر على طول الشارع ودخل إلى حانة قضى فيها نصف ساعة، وحين خرج كان يترنح في مشيته، وكان من الواضح أنه مخمور. كانت أمام عربتي مباشرةً عربةٌ صغيرة، فأوقفها وركب فيها، فتبعته عن قرب لدرجة أن أنف حصاني كان على بعد قدم من عربته طول الطريق. انطلقنا لنعبر جسر واترلو ثم لنقطع أميالاً عبر الشوارع حتى وجدنا أنفسنا -لدهشتي الشديدة- وقد عُدنا إلى المكان الذي كان يقطنه! لم أفهم سبب عودته، ولكنني أوقفت عربتي بالقرب من النزُل، أما هو فدخل إليه وانصرفت العربة التي كان يركبها.

توقف هوب عن السرد فجأة وقال: اعطني كوباً من الماء لو سمحت، فالكلام جعل فمي يجف.

أعطيته الماء فشربه ثم قال: هذا أفضل. حسناً، كنت قد انتظرت ربع ساعة أو أكثر حين سمعت ضجّة تشير إلى



رسم جورج هَتْشِنْسون (١٨٩١) George Hutchinson (1891)

مشاجرة في المكان، وفي اللحظة التالية فُتح الباب وظهر رجلان، أحدهما كان دريبر والآخر شاب لم أره من قبل. وقد قبض ذلك الشخص على ياقة دريبر وجرّه منها، وحين وصل إلى قمة الدرَج دفعه وركله بقوة رمت به إلى الطريق، ثم صاح قائلاً وهو يهز عصاه مهدداً: أيها الكلب! سألقنك درساً لتحرشك بفتاة محترمة.

كان غاضباً جداً حتى ظننت أنه سيحطم دريبر بهراوته، لولا أن ابتعد الوغد مترنحاً وسار في الشارع بأقصى سرعته حتى وصل إلى المنعطف، وحين رأى عربتي قفز بداخلها قائلاً: خذني إلى فندق هوليديز.

حين صار في عربتي رقص قلبي فرحاً لدرجة أنني خشيت أن ينفجر شرياني في تلك اللحظة الحاسمة. قُدتُ العربة ببطء وأنا أفكر في الطريقة المُثلى للتصرف. أستطيع أن آخذه إلى الريف، وهناك سأحظى بمقابلة أخيرة معه في أحد البقع النائية. كاد رأيي يستقر على هذا الرأي حين حسم هو ترددي، فقد سيطر عليه جنون الخمر ثانية فأمرني بالتوقف أمام إحدى الحانات، ثم دخل وطلب مني انتظاره. بقي هناك حتى وقت الإغلاق، وحين خرج كان عقله غائباً لدرجة جعلتني أعرف أنه صار في قبضتي تماماً.

لا تتخيلوا أنني أردت قتله بدم بارد، مع أنني كنت سأحقق العدالة المجردة لو صنعت ذلك. ليس هذا ما أردته، فقد قررت منذ زمن بعيد أن يحظى بفرصة لإنقاذ حياته إذا

استطاع اقتناصها، فمن بين الوظائف التي شغلتها في أمريكا خلال حياة التجوال التي عشتها كان العمل حاجباً في معمل بكلّية يورك، وفي أحد الأيام ألقى الأستاذ محاضرة عن السموم وعرض بعض المواد القلوية (كما سمّاها) التي استخرجها من بعض أعشاب أمريكا الجنوبية، وقد كانت من القوة بحيث يكفي أقل قَدْر منها للتسبب بموت فوري.

عرفت مكان الزجاجة التي حُفظت فيها تلك المادة، وعندما غادر الجميع أخذت بعضاً منها. كنت صيدلياً جيداً فوضعت تلك المادة القلوية في حبوب صغيرة قابلة للذوبان، ووضعت كل حبة في علبة صغيرة مع حبة مشابهة لا تحتوي على السم، وقررت في ذلك الوقت أنني سأدع الرجلين يختاران أحد القرصين حين تتاح لي الفرصة وأتناول أنا القرص الآخر. هذه الوسيلة ستكون مميتة بدرجة كافية وأقل ضجة من إطلاق النار. منذ ذلك اليوم وأنا أحمل دائماً هذه العلب معي، وها قد جاء الوقت لاستخدامها.

كانت الساعة أقرب إلى الواحدة منها إلى الثانية عشرة في ليلة هائجة قارصة البرودة تعصف فيها الرياح بشدة وتهطل الأمطار سيولاً، ورغم كآبة الجو كنت أشعر بالسعادة، سعادة قصوى لدرجة أنني كنت أريد أن أصرخ من فرط الانفعال.

لو أن أحداً منكم -أيها السادة- أراد شيئاً بقوّة وتاق إلى تحقيقه طوال عشرين عاماً ثم وجده فجأة بين يديه لفهم ما شعرت به! كانت أصابعي ترتجف ورأسي ينبض من الإثارة،

فطوال الرحلة التي قُدت فيها العربة كنت أرى العجوز فيريير والحلوة لوسي ينظران إليّ عبر الظلام ويبتسمان لي بنفس الوضوح الذي أراكم فيه في هذه الغرفة! ما زلت أراهما خلال الرحلة كلها حتى توقفتُ أخيراً أمام المنزل المهجور في شارع بريكستون. لم أرَ أحداً هناك ولم أسمع صوتاً سوى صوت المطر، وحين نظرت داخل العربة وجدت دريبر غارقاً في نوم مخمور، فهززت ذراعه وقلت: حان الوقت لتنزل.

لا شك أنه ظن أننا وصلنا إلى الفندق الذي سمّاه، لأنه نزل من العربة دون أن ينطق بكلمة أخرى وتبعني عبر الحديقة. مشيت بجواره لأساعده على التوازن لأنه كان ما يزال ثملاً، وعندما وصلنا إلى الباب فتحته وقُدته إلى الغرفة الأمامية، وأقسم لكم أن الفتاة وأباها سارا أمامنا طوال الطريق!

قال وهو يتخبط في سيره: إن الظلام حالك.

قلت: سنحظى بالنور سريعاً. ثم أشعلت عود كبريت لأضيء به شمعة كنت قد أحضرتها معي، وأكملت قائلاً وأنا التفت نحوه مسلّطاً الضوء على وجهي: والآن يا إينوش دريبر، أتعرف مَن أنا؟

حدّق إليّ بعينين مشوشتين للحظة، ثم رأيت فيهما رعباً جارفاً والتوت ملامح وجهه فأدركت أنه عرفني. تراجع مترنّحاً وقد شحب وجهه، ورأيت أسنانه تصطك وجبهته تتفصد عرقاً. حين رأيت ذلك المنظر أسندت ظهري إلى الباب وضحكت طويلاً بصوت عال. لطالما عرفت أن الانتقام سيكون عَذْباً،

ولكنني لم أتخيل قَطّ أن يتملكني مثل هذا الرضا الهائل.

قلت: أيها الكلب! لقد تبعتك من مدينة سولت ليك إلى لندن ودائماً ما كنت تهرب مني، والآن انتهى تجوالك لأن أحدنا لن يرى شمس الغد.

تراجع دريبر منكمشاً، وقرأت في وجهه أنه يعتقد أنني مجنون! ولعلي كنت أقرب إلى الجنون في تلك اللحظة، فقد نبضت عروق صدغيّ بقوة حتى ظننت أنني على وشك



رسم رتشارد غوتْشمِت (١٩٠٢) Richard Gutschmidt (1902)

الإصابة بنوبة من نوع ما، لولا أن الدم تدفق نازفاً من أنفي فأراحني من الضغط الشديد.

صحت وأنا أغلق الباب وأهزّ المفتاح في وجهه: ما رأيك في لوسي فيريير الآن؟ كان العقاب بطيئاً في الوصول إليك، ولكنه أدركك أخيراً.

رأيت شفتيه ترتجفان، ولولا إدراكه عدم جدوى توسله لالتمس العفو. تمتم قائلاً: هل ستقتلني؟

أجبته قائلاً: ليس قتلاً. مَن تحدّث عن قتل كلب مجنون؟ ولكن لا رحمة. هل رحمتَ أنت حبيبتي المسكينة حين جررتها من جانب أبيها الذي شاركت بقتله وأسرتَها لتكرهها على الزواج؟

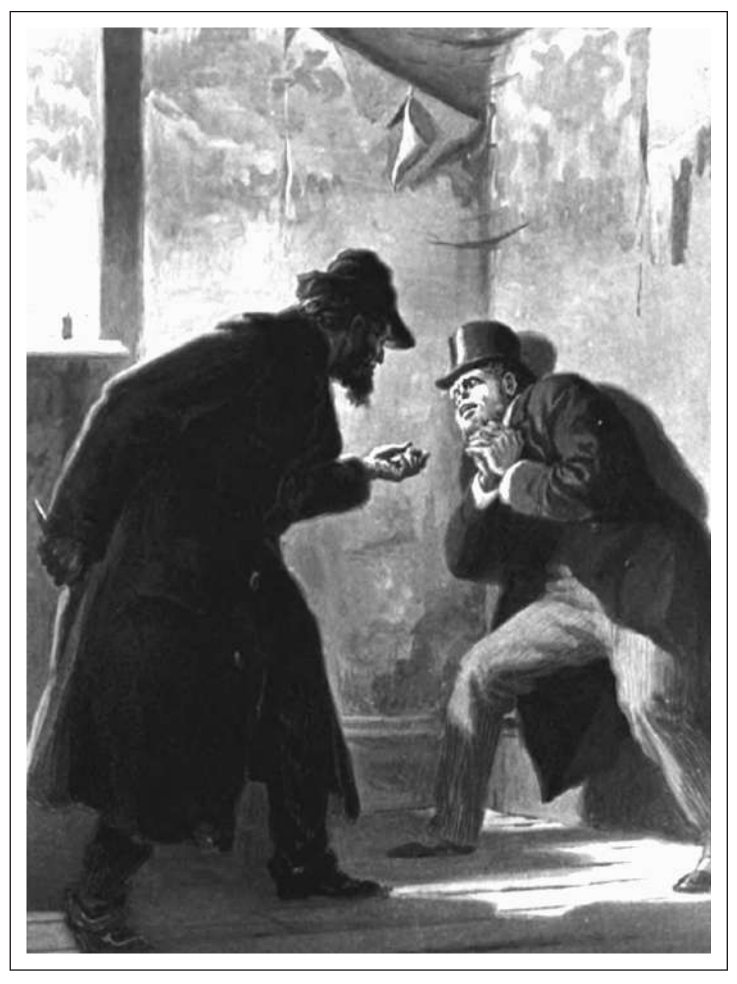
صاح قائلاً: لم أكن أنا مَن قتل والدها.

صحت به وأنا أدفع العلبة أمامه: ولكنك كنت مَن حطم قلبها البريء، فلنترك الحكم بيننا لله العظيم. اختر وابلع. أحد هذين القرصين يحمل في داخله الموت، وفي الآخر الحياة، وأنا سأبلع القرص الذي ستتركه. فلنرَ إن كان على وجه الأرض عدلٌ معجَّلٌ أم أنّ العدل سيؤجَّل إلى الآخرة؟

ابتعد خائفاً وهو يطلق صيحات هائجة ويتضرع طلباً للرحمة، ولكنني أخرجت سكيني ووضعتها على رقبته حتى أطاعني، فأخذ من العلبة قرصاً بلعه وبلعت أنا القرص الآخر، ثم وقفنا بصمت متقابلَين وجهاً لوجه في انتظار النتيجة: أيّنا

سيعيش ومن الذي سيموت؟

لا يمكن أن أنسى النظرة التي ارتسمت على وجهه عندما أنذرَته أولى وخزات الألم وأشعرَته بأن السم سرى في عروقه. لقد ضحكت حين رأيت تلك النظرة وحملت خاتم زواج لوسي



رسم آرثر تويدل (١٩٠٣) Arthur Twidle (1903)

أمام عينيه، ولكن ألمه لم يَدُم إلا قليلاً لأن مفعول السم كان سريعاً. انتابته نوبة من الألم والتوَتْ ملامح وجهه فمدّ ذراعيه إلى الأمام وترنّح بقوة، ثم أطلق صيحة محشرجة وسقط بعنف على الأرض، فقلبته بقدمي على ظهره، ووضعت يدي على قلبه فلم أشعر بحركة. لقد مات.

كان الدم يتدفق من أنفي بغزارة ولكني لم انتبه إليه، ولا أدري ما الذي جعلني أفكر باستخدامه للكتابة على الجدار. ربما كانت فكرة ماكرة لإبعاد الشرطة عن الطريق الصحيح، فقد شعرت بالسعادة وانشراح القلب وتذكرت أن ألمانياً عُثر عليه مقتولاً في نيويورك وقد كُتبت فوقه كلمة «انتقام» بالألمانية، وذكرَت الصحف وقتها أن الجماعات السرية هي المسؤولة عن الجريمة. اعتقدت أن ما حيّر شرطة نيويورك قد يحيّر شرطة لندن، فلوّثت إصبعي بدمي وكتبت الكلمة في موضع مناسب في الجدار. ودخّنت سيغار الانتصار، ثم اتجهت إلى عربتي فلم أجد أحداً في الشارع، فالليلة كانت عاصفة جداً.

بعدما ابتعدت مسافة بسيطة وضعت يدي في جيبي الذي احتفظت فيه دائماً بخاتم لوسي فلم أجده، فصُعقت وحزنت لأنه كان الذكرى الوحيدة التي أملكها منها. غلب على ظني أنني أسقطته حين ملت فوق جثة دريبر، فرجعت بالعربة، وتركتها في شارع جانبي لأذهب بعد ذلك بجرأة إلى المنزل، وحين وصلت التقيت وجهاً لوجه بشرطي كان خارجاً منه، ولكي أزيل شكّه تظاهرت بأنني متسكّع في حالة سُكر شديد.

وهكذا انتهت حياة إينوش دريبر، وكل ما بقي عليّ فعله بعدها كان تكرار الأمر نفسه مع ستانغرسون، وحينها سأكون قد سددت الدَّين لجون فيريير ولوسي العزيزة.

عرفت أنه يقيم في فندق هوليديز، فتسكعت حول الفندق طوال اليوم ولكنه لم يخرج منه. لعله شعر بالخطر عندما لم يظهر دريبر، فستانغرسون كان داهية يَلزم الحذر دائماً. ولكن لو ظن أنه يستطيع النجاة بالبقاء في الداخل فهو مخطئ، فسرعان ما عرفت أيّ النوافذ هي نافذة غرفة نومه، ثم نجحت في الصباح التالي باستغلال سلّم كان ملقى على المرج خلف الفندق، فصعدت إلى غرفته في عتمة الفجر وأيقظته لأخبره أن الوقت حان لكي يُحاسَب على الروح التي أزهقها منذ زمن طويل.

وصفت له الطريقة التي مات بها دريبر وأعطيته الحق نفسه في الاختيار، ولكنه بدلاً من استغلال الفرصة التي عرضتها عليه للنجاة هَبّ واقفاً من سريره وحاول خنقي بيديه القويتين، فطعنته في قلبه دفاعاً عن النفس. ولكن النتيجة ما كانت لتتغير في كل الأحوال، فالعدالة الإلهية لم تكن أبداً لتسمح لتلك اليد المذنبة بالتقاط أيّ قرص ما عدا القرص المسموم.

لم يبقَ الكثير لأقوله، وهذا جيد لأنني متعب جداً. عدت لقيادة عربتي في اليوم التالي وفي نيتي المحافظة على هذا العمل حتى أتمكن من ادّخار ما يكفي من المال لعودتي

إلى أمريكا (لو كُتبت لي الحياة ولم يقتلني المرض). كنت في موقف عربات الأجرة حين جاء صبي رث الثياب وطلب مني مرافقته لنقل مسافر مع حقائبه، فمضيت معه بعربتي وأنا لا أتوقع أي شر، لأجد هذا الرجل وقد وضع القيود في معصمي... وهي من أكثر القيود التي رأيتها أناقة في حياتي!



رسم جورج هَتْشِنْسون (١٨٩١) George Hutchinson (1891)

هذه حكايتي كلها يا سادة. وربما اعتبرتموني قاتلاً، ولكنني أعتبر نفسي مُنفذاً للعدالة مثلكم جميعاً.

* * *

كانت رواية الرجل مثيرة وكان أسلوبه مؤثراً لدرجة أننا جلسنا جميعاً بصمت منتبهين لما يقول، حتى المحققان المحترفان ورغم تعودهما على الجرائم بكل تفاصيلها بدا عليهما الاهتمام الشديد بقصته. وعندما انتهى بقينا صامتين بلا حراك لعدة دقائق، ثم قال شيرلوك هولمز أخيراً: نقطة واحدة أحب أن أعرف عنها المزيد. مَن كان شريكك الذي جاء طلباً للخاتم الذي أعلنتُ عنه؟

غمز السجين لصديقي مازحاً وقال: أستطيع أن أخبرك بأسراري الخاصة ولكن دون أن أورط أشخاصاً آخرين في المتاعب. لقد رأيت إعلانك واعتقدت أنه قد يكون فخاً، ولكن كان من المحتمل أيضاً أن يكون الخاتم الذي أردته، فتطوع صديقي لكي يذهب ويرى الأمر بنفسه، وأعتقد أنك تعترف بأنه نفذ المهمّة بدهاء.

قال هولمز بحرارة: لا شك في ذلك.

قال الضابط بوقار: والآن يا سادة، يجب الامتثال للقانون. سوف يُعرَض السجين على القاضي يوم الخميس، وسيكون حضوركم مطلوباً حينها، وحتى ذلك الوقت سيكون تحت مسؤوليتي الكاملة.

رنّ الضابط الجرس فجاء اثنان من الحرس واقتادا جفرسون هوب، أما أنا ورفيقي فقد غادرنا مركز الشرطة وركبنا عربة أجرة لنعود إلى شارع بيكر.

* * *



رسم رتشارد غوتْشمِت (١٩٠٢) Richard Gutschmidt (1902)

الفصل السابع
الختام

كان علينا الوقوف أمام القاضي يوم الخميس، ولكن شهادتنا لم تعد ضرورية بحلول ذلك اليوم، فقد مضى جفرسون هوب ليقف أمام المحكمة الوحيدة التي تحكم بالعدل الكامل في هذا الكون. في الليلة التالية انفجر شريانه فوجدوه في الصباح ممدداً على أرض الزنزانة وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة هادئة، كأنه مضى سعيداً بعدما نفّذ واجبه على الوجه الأكمل.

حين ناقشنا الموضوع مساء اليوم التالي قال هولمز: لعل ليستراد وغريغسون سيستاءان لوفاته بشدة، فمِن أين لهما بالدعاية الآن؟

أجبته قائلاً: لا أرى أن لهما دوراً كبيراً في القبض عليه.

قال رفيقي بمرارة: لا اعتبار لما يصنعه المرء حقاً في هذه الحياة، بل المهم هو الذي يمكنك إقناع الناس بأنك صنعته! وصمت قليلاً ثم أكمل بمرح: لا تهتم، فما كنت لأفوّت التحقيق في هذه القضية لأي سبب. لا أذكر قضية أفضل منها،

فرغم بساطتها إلا أن فيها عدة نقاط مفيدة.

صحت معترضاً: أهذه قضية بسيطة؟!

قال شيرلوك هولمز وهو يبتسم لدهشتي: حسناً، لا يمكن حقاً وصفها بعكس ذلك، والدليل على بساطتها هو أنني استطعت الوصول إلى القاتل خلال ثلاثة أيام دون مساعدة من أحد وبواسطة استنتاجات عادية جداً.

قلت: هذا حقيقي.

- لقد شرحت لك من قبل أن الخارج عن المألوف يكون في العادة دليلاً يساعد على الحل وليس عقبة في طريقه. إن حل قضية من هذا النوع يتحقق بالتحليل المنطقي العكسي، وهو أسلوب سهل ومفيد جداً، ولكن الناس لا يتمرنون عليه كثيراً. ففي مشكلات الحياة اليومية نلجأ غالباً إلى تحليل الأمور بتسلسل وقوعها، وهكذا نهمل الاتجاه العكسي. ربما نجح تسعة وأربعون شخصاً من خمسين في التفكير المنطقي التركيبي، أما التفكير المنطقي التحليلي فقد لا يتقنه سوى شخص واحد من خمسين.

قلت: أعترف بأنني لا أفهمك.

قال هولمز: لم أتوقع أن تفهم بسرعة، ولكني سأحاول توضيح المسألة. معظم الناس إذا وصفتَ لهم سلسلة من الأحداث يستطيعون التنبؤ بنتيجتها بدرجة مقبولة من الدقّة، فهم يرتبون تلك الأحداث في عقولهم فيدركون أن شيئاً ما

سيحدث في نهايتها. ولكن أناساً قلائل يعرفون نتيجةً ما، ثم يدركون بعقولهم سلسلة الأحداث التي قادت إليها. هذه القدرة هي ما أقصده حين أتحدث عن التفكير المنطقي بأثر رجعي أو بشكل تحليلي.

قلت: فهمت.

قال: كانت هذه القضية من النوع الذي تحصل فيه على النتيجة ويكون من واجبك معرفة كل شيء آخر بنفسك. والآن دعني أشرح لك الخطوات المتسلسلة لتحليلي المنطقي. لنبدأ من البداية، فقد اقتربتُ من البيت الذي وقعت فيه الجريمة -كما لاحظتَ- سيراً على الأقدام دون أن يكون عندي أي تصور مسبق. بطبيعة الحال بدأت بفحص الطريق، وهناك وجدت -كما شرحت من قبل- آثار عربة وتأكدت أنها كانت هناك أثناء الليل، وقد اقنعت بأنها عربة أجرة وليست عربة خاصة بسبب المسافة الضيّقة بين العجلات، فعربات الأجرة في لندن أقل عرضاً من العربات الخاصة ذات العجلات الأربع.

كانت تلك هي المعلومة الأولى التي عرفتها. بعد ذلك مشيت على طول ممر الحديقة الذي تصادف أن أرضيته كانت من التربة الطينية، وهي التربة المناسبة تماماً لإظهار آثار الأقدام. ربما بدا لك مجرّد خط من الوحل المدعوس، أما في عينيّ المدربتين فكان لكل أثر في الممر معنى مميز. إن فنّ تقصي آثار الأقدام أكثر فروع علم التحري إهمالاً رغم أهميته الشديدة، ولحسن الحظ فقد حرصت على الاهتمام به كثيراً

حتى صار مع كثرة التمرين طبيعة غريزية عندي.

رأيت هناك آثار أقدام الشرطي الثقيلة، ولكني رأيت أيضاً آثار الرجلين اللذين سارا عبر الحديقة أولاً. كان من السهل معرفة أنهما حضرا قبل الآخرين لأن آثارهما طُمِست تماماً في بعض الأماكن بآثار أقدام أخرى سارت فوق آثارهما. بهذه الطريقة وصلت إلى الحلقة الثانية في السلسلة، وعرفت من خلالها أن زائرَي الليل كانا اثنين وأن أحدهما طويل بشكل مميز (توصلت لذلك عن طريق حسابي لطول خطوته كما أخبرتك من قبل) والآخر أنيق الملبس (وقد حكمت على ذلك من الأثر الأنيق الصغير الذي تركه حذاؤه).

تأكد هذا الاستنتاج الأخير حين دخلت إلى المنزل، فقد تمدد الرجل ذو الحذاء الأنيق أمامي. فالرجل الطويل إذن هو الذي قَتَل (لو أن ما وقع هناك كان جريمة قتل). لم يكن في جسد الميت جرح ولكن التعبير المرتاع على وجهه أكد لي أنه توقع مصيره قبل أن ينزل به، فالناس الذين يموتون من مرض قلبي أو أي سبب طبيعي مفاجئ لا يظهر الفزع على ملامحهم. وبعد أن شممت شفتَي الميت لاحظت رائحة حادّة، فاستنتجت أنه أُرغم على تناول السم، وقد تأكدت من تخميني هذا بسبب الخوف الذي ارتسم على ملامحه. توصلت إلى هذه النتيجة عن طريق الاستبعاد، أي لعدم وجود نظرية أخرى قد تتطابق مع كل الحقائق. ولا تظنّ أنها فكرة جديدة، فإعطاء السم بشكل قسري ليس جديداً في سجلات الجريمة، وقضايا دولسكي بأوديسا وليتربيه في مونتبيلييه ستخطر فوراً

على بال أي متخصص في علم السموم.

والآن نصل إلى السؤال المهم والمتعلق بالسبب: لماذا ارتُكبت الجريمة؟ لم تكن السرقة هي الدافع للقتل، فلم يُسرَق شيء. هل يتعلق الدافع بالسياسة إذن؟ أم أن السبب امرأة؟ كان هذا هو السؤال الذي واجهني، وقد ملت منذ البداية إلى السبب الثاني، فالذين يقتلون لأسباب سياسية عادة ما يكونون راضين بتنفيذ عملهم ثم الهرب، أما هذه الجريمة فقد خُطِّط لها بشكل متقَن على عكس تلك الجرائم. كما أن مُرتكب الجريمة ترك آثار أقدامه في أنحاء الغرفة، مما يدل على بقائه فيها طَوال الوقت. لا بد -إذن- أن يكون وراء هذا الانتقام المنظّم ضرر شخصي لا سياسي، وحين اكتُشفَت الكتابة على الجدار زاد ميلي لهذا الرأي، فقد رأيته مجرد ستار للتغطية على الدافع الأصلي. وأخيراً عثرنا على الخاتم فصار هذا الاستنتاج يقيناً، فمن الواضح أن القاتل استخدمه لتذكير القتيل بامرأة غائبة أو ميتة. عند وصولي لهذه النقطة سألت غريغسون إن كان قد سأل في برقيته عن أي نقاط غريبة في سيرة السيد دريبر السابقة، وكما تذكر فقد أجاب بالنفي.

بعد ذلك بدأت بفحص الغرفة بعناية، فتأكدت من صحة رأيي بشأن طول القاتل، وحصلت على تفاصيل جديدة: السيغار وطول الأظافر. وكنت قد وصلت إلى نتيجة بالفعل، ففي غياب أي آثار لعراك بين الرجلين خمّنت أن الدم الذي شاهدناه على الأرض خرج من أنف القاتل بسبب انفعاله، كما لاحظت أن أثره مترافق دائماً مع آثار قدميه. ونادراً ما يحدث

هذا الأمر لرجل بسبب الانفعال ما لم يكن شديد القوة، لهذا غامرت بافتراض أن القاتل كان رجلاً قوياً متورّد الوجه! وقد أثبتت الأحداث صحة استنتاجي.

بعدما غادرنا المنزل تداركت ما أهمله غريغسون، فقد أرسلت برقية لرئيس الشرطة في كليفلاند وحصرت سؤالي بالظروف المحيطة بزواج إينوش دريبر، وكان الجواب حاسماً، حيث أخبرني أن دريبر كان بالفعل قد طلب حماية الشرطة من منافس قديم يُدعى جفرسون هوب، وأن هوب موجود حالياً في أوروبا. في تلك اللحظة عرفت أنني أمسكت بمفتاح اللغز في يدي، ولم يبقَ إلا القبض على القاتل.

كنت قد قررت في عقلي أن الرجل الذي سار مع دريبر إلى المنزل هو نفسه سائق العربة، فالعلامات الموجودة على الرصيف أظهرت لي أن حركة الحصان تدل على أن أحداً لم يكن ممسكاً بلجامه وقتها، فأين إذن كان السائق ما لم يكن داخل المنزل؟ وكان مستبعَداً أيضاً أن ينفّذ أي إنسان عاقل مثل تلك الجريمة تحت نظر شخص ثالث قد يَشي به للسلطات. وأخيراً إذا افترضنا أن شخصاً ذكياً مثابراً أراد تتبع شخص آخر في شوارع لندن فهل سيجد أفضل من دَور سائق عربة أجرة لتنفيذ مهمته؟ كل هذه الاعتبارات قادتني إلى أن جفرسون هوب كان بين سائقي عربات الأجرة بمتروبوليس.

وإذا كان هذا الشخص قد عمل سائق عربة أجرة فلا سببَ يدعونا إلى الاعتقاد بأنه توقف عن هذا العمل. على

العكس، فمن وجهة نظره سيكون أيّ تغيير مفاجئ مبرراً للفت الأنظار إليه، لهذا فالمحتمَل أن يستمر بعمله، ولو في الوقت الحاضر على الأقل. ولم أجد سبباً لافتراض أنه سيتخذ اسماً مستعاراً، فلماذا يغيّر اسمه في مدينة لا يعرف أحدٌ فيها اسمَه الأصلي؟ عندها استأجرت مجموعة «محقّقي الشوارع» وأرسلتهم بشكل منظم إلى كل أصحاب عربات الأجرة في لندن، حتى عثروا أخيراً على الرجل الذي أردته بعد جهد جهيد. لا بد أنك ما زلت تذكر كيف أنجزوا مهمتهم بنجاح! ولكن مقتل ستانغرسون كان حادثاً غيرَ متوقع تماماً، وبسببه حصلت على الأقراص التي كنت قد خمّنت وجودها بالفعل. أترى؟ إن الأمر كله سلسلة من الأحداث المنطقية المتتابعة دون خطأ أو خلل.

صحت قائلاً: هذا رائع! إن مهارتك تستحق أن يعرفها الناس. يجب أن تنشر سرداً للقضية، وإنْ لم تفعل سأفعل أنا.

أجابني: يمكنك أن تفعل ما تحب يا دكتور. انظر هنا.

أعطاني الصحيفة التي كانت في يده، وكان المقطع الذي أشار إليه يتناول القضية التي نتحدث عنها، وجاء فيه:

> خسر الجمهور بوفاة المدعو هوب المفاجئة معلومات مثيرة كان يُنتظَر الحصول عليها منه، والسيد هوب هو المشتبَه به في مقتل السيد إينوش دريبر والسيد جوزف ستانغرسون.
>
> غالباً لن تُعرف التفاصيل الكاملة للقضية بعد الآن،

ومع ذلك فقد علمنا من مسؤول كبير أن الجريمة وقعت نتيجة عداوة رومَنْسيّة قديمة، وقد كان للحب وللعقيدة المورمونية دور محوري فيها، حيث يبدو أن الضحيتين كانا ينتميان في شبابهما إلى جماعة القديسين. وهوب نفسه جاء أيضاً من مدينة سولت ليك التي يقع مركزهم فيها.

ولو لم يكن للقضية أي تأثير آخر فهي قد أثبتت على الأقل كفاءة محققي الشرطة، وسوف تكون درساً للأجانب لكي يعالجوا مشكلاتهم ويحلّوا نزاعاتهم



رسم رتشارد غوتْشمِت (١٩٠٢) Richard Gutschmidt (1902)

في أوطانهم بدلاً من حملها إلى الأراضي البريطانية. ومن المعروف أن الفضل في الاعتقال الذكي للقاتل يعود بشكل كامل لمفتّشَين مشهورَين في الشرطة البريطانية هما السيد ليستراد والسيد غريغسون.

ويُشار إلى أن الرجل قُبض عليه -على ما يبدو- في منزل السيد شيرلوك هولمز، وهو محقق هاوٍ أظهر بعض الموهبة في التحري، ويُرجى مع الوقت وبإشراف محقّقي الشرطة المدربين أن يُحرز بعضاً من مهارتهما. ومن المتوقع تقديم شهادة تقدير إلى محقّقَي الشرطة جزاء لخدماتهما المتميزة.

قال شيرلوك هولمز ضاحكاً: ألم أقل لك عندما بدأنا؟ ها هي نتيجة دراستنا القِرمِزيّة: حصول محقّقَي الشرطة العبقريّيَن على شهادة تقدير!

أجبته قائلاً: لا تهتم، فلديّ كل الحقائق في مذكراتي وسوف يعرفها العامة، أما في الوقت الحالي فعليك أن ترضى بإحساسك المبهج بالنجاح.

❋ ❋ ❋

-تمَّت-

المحتويات

«الأجيال» تقدم الأعمال الكاملة
لشيرلوك هولمز في ١٨ جزءاً

ترقيم المجموعة
حسب تسلسل الصّدور الأصلي باللغة الإنكليزية

(١) دراسة في اللون القِرْمِزيّ
(نُشرت سنة ١٨٨٧)

(٢) علامة الأربعة
(نُشرت سنة ١٨٩٠)

(٣) مغامرات شيرلوك هولمز (١٨٩١)
فضيحة في بوهيميا * عصبة ذوي الشَّعْر الأحمر
قضية هُويّة * لغز وادي بوسْكومْب

(٤) مغامرات شيرلوك هولمز (١٨٩١-١٨٩٢)
بُذور البرتقال الخَمْس * ذو الشّفَة المُلتوية
مغامرة الجوهرة الزرقاء * لغز العصابة الرَّقطاء

(٥) مغامرات شيرلوك هولمز (١٨٩٢)
مغامرة إبهام المهندس * مغامرة النّبيل الأعزب
مغامرة تاج الزُّمُرّد * منزل الأشجار النحاسيّة

(٦) مذكرات شيرلوك هولمز (١٨٩٢-١٨٩٣)

ذو الغُرّة الفضية ❊ لغز الطرد البريدي

لغز الوَجه الأصفر ❊ مغامرة موظف البورصة

(٧) مذكرات شيرلوك هولمز (١٨٩٣)

سفينة «غْلوريا سْكوت» ❊ وصية عائلة موسْغريف

لغز بلدة ريغيت ❊ مغامرة الرّجل الأحدَب

(٨) مذكرات شيرلوك هولمز (١٨٩٣)

لغز المريض المقيم ❊ مغامرة المترجم اليوناني

وثائق المعاهدة البحرية ❊ المشكلة الأخيرة

(٩) كلب باسكرفيل (١٩٠١-١٩٠٢)

(١٠) عودة شيرلوك هولمز (١٩٠٣-١٩٠٤)

مغامرة المنزل الفارغ ❊ مغامرة بَنّاء نورْوُد

لُغز «الرجال الراقصون» ❊ مغامرة راكبة الدرّاجة

(١١) عودة شيرلوك هولمز (١٩٠٤)

مغامرة مدرسة التّجهيز ❊ مغامرة بيتر الأَسْوَد

قضيّة تشارلز مِلْفرتون ❊ لغز تماثيل نابليون الستّة

(١٢) عودة شيرلوك هولمز (١٩٠٤)

مغامرة الطلاب الثلاثة ❊ لغز النظّارة الذهبية

مشكلة اللاعب المفقود ❊ مغامرة قصر آبي غرينْج

(١٣) ذكريات شيرلوك هولمز (١٩٠٤-١٩٠٨)

مغامرة البقعة الثانية ❊ لغز منزل وِسْتيريا لودج
سرقة تصميمات الغوّاصة

(١٤) ذكريات شيرلوك هولمز (١٩١٠-١٩١٣)

لغز «قدم الشيطان» ❊ مغامرة «الدائرة الحمراء»
اختفاء الليدي كارْفاكس ❊ مغامرة المحقّق المريض

(١٥) وادي الخوف (١٩١٤)

(١٦) قضايا شيرلوك هولمز (١٩٢١-١٩٢٤)

مغامرة جوهرة التّاج ❊ لغز جسر ثُور
مغامرة الرجل الزاحف ❊ لغز مَصّاصة الدماء

(١٧) قضايا شيرلوك هولمز (١٩٢٥-١٩٢٦)

رجال غاريدِبْ الثلاثة ❊ مغامرة العميل المبجَّل
منزل الجَمَلونات الثلاثة ❊ مغامرة الجنديّ الشاحب

(١٨) قضايا شيرلوك هولمز (١٩٢٦-١٩٢٧)

مغامرة لِبدة الأسد ❊ مشكلة صانع الألوان المتقاعد
لغز النّزيلة المنقَّبة ❊ لغز قصر شوسكومْب
الظهور الأخير